حياة مجتمع

أ.د. عبد الكريم بكار

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٢/٩/٣٥٠٩)

ISBN 978-9957-479-88-6 :(ردمك)

حياة مجتمع

الأستاذ الدكتور

عبد الكريم بكار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن الله تعالى فطر الإنسان على الاستئناس بأخيه الإنسان، كما فطره على الاحتياج إليه، حيث لا يستطيع أي فرد تأمين كل متطلبات وجوده بنفسه، والحقيقة أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا عاش في مجتمع إنساني، ورباه إنسان، وإذا تأملنا فيما يُدخل السرور علينا، فإننا نجد أن العلاقات الأسرية والاجتماعية هي المصدر الأكبر للعيش الهانئ، لكن من المؤسف أن الناس لا ينتبهون لما ذكرناه، ولا يهتمون به، ولهذا فإن الشريحة التي تحاول الارتقاء بالوضع الاجتماعي، وتبذل بعض الجهود في حل المشكلات الاجتماعية شريحة ضيقة للغاية!

إن التجديدات التقنية المتسارعة قد غيرت في ثقافة الناس، وأثرت في علاقاتهم واهتماماتهم، بل إنها غيرت اتجاهات كثير منهم على نحو سلبي!

إن لقاء الإنسان بأخيه الإنسان هو مصدر للكثير من الخير والارتياح، لكنه أيضاً مصدر لكثير من التوتر والنزاع والصدام، ولا بد من العمل على التخفيف من ذلك بما يتوفر من الوسائل، وأعتقد أن (مأسسة المجتمع) هي السبيل الأفضل لهذا حيث تقوم بعض المؤسسات الخيرية والتطوعية بنشر الثقافة الاجتماعية وتسليط الضوء على المشكلات التي يعاني منها المجتمع، وتقوم مؤسسات أخرى كثيرة بإيجاد الحلول لتلك المشكلات.

إن الراغبين لدينا في فعل الخير كثيرون جداً لكنهم لا يجدون الإطار الذي يحرر طاقاتهم، ويوجِّه جهودهم، ويستثمر الإمكانات التي في حوزتهم، ولهذا نرى أن أكثر المجتمعات تقدماً أكثرها مأسسة.

محتوى هذا الكتاب عبارة عن اثنين وعشرين مقالاً نشرتها خلال السنوات الأربع الماضية في بعض المجلات والمواقع الإلكترونية، وهي تشكل في الحقيقة إسهاماً صغيراً في نشر الوعي الاجتماعي وتحفيز الناس على خدمة المجتمع.

والله أسأل أن ينفع به القراء الكرام، وأن يجعله ذخراً لي يوم الدين؛ إنه سميع مجيب.

المؤلف

في ١/ ٥/ ١٤٣٣هـ

مخاض مجتمع

ليست الجهالة بما تأتي به الأيام شيئاً جديداً على الوعي البشري، بل هو الشيء المألوف و المتوقع، وعلى مدار التاريخ كان الإنسان مستعداً للتكيف مع الظروف والمعطيات الجديدة، و بما أن التغير كان بطيئاً جداً، فإن توقع ما سيكون لم يكن صعباً، كما أن المطلوب من التأقلم كان محدوداً، لكن كل هذا قد تغير اليوم على نحو يولِّد الدهشة، و من الواضح جداً أن التطور التقني الحادث اليوم قد جعل الواحد منا و كأنه يخالط نماذج من كل البشر، و يطلع في آن واحد على كل الأفكار والمفاهيم و العقائد الموجودة لدى كل الملل و النحل، و هذا يشكل دفقاً ثقافياً يصعب على الوعي البشري التعامل معه وتمييز غثّه من سمينه، وهذا يجعلنا نقول: إن مجتمعاتنا العربية والإسلامية هي فعلاً اليوم في حالة مخاض، و لا ندري بالضبط ما الذي ستكون عليه أوضاعها المختلفة بعد عشر أو عشرين سنة، وهذا شيء يبعث على القلق، و يجعلنا نعاني من ضعف

اليقين تجاه العديد من الأمور، و لعلي أشير إلى بعض ما أهجس به عبر الحروف الصغيرة الآتية:

١ـ لا ينبغي أن نفهم أن ما هو قادم هو مجموعة من الشرور والسلبيات، فقد مضت سنة الله تعالى في ابتلاء خلقه أن تأتي المشكلات و الأزمات، و معها بعض طرق حلها والتعامل معها، كما أنه يكون معها شيء من الخير الظاهر أوالكامن، كما مضت سنته جل شأنه في أن يكون مع الخير و الرخاء شيء من الشر والتحدي، ولهذا فإن ما هو قادم يحتاج إلى انتباه و حذر أكثر حتى نستفيد من خيره، و نتقي شره، وعلى كل حال فإن طريقة تعاملنا مع الأشياء تؤثر في النتائج أكثر من تأثير طبائع تلك الأشياء.

٢ـ حين يقلُّ العلم، و ينتشر الجهل، فإن من السهل على الناس أن ينظروا إلى ما هو من قبيل الرأي و الاجتهاد الشخصي على أنه حقائق و مسلَّمات غير قابلة للنقاش، وهذه النظرة هي السبب المباشر في انتشار التقليد والتعصب و الجمود الذهني والثقافي، أما اليوم فإن الناس يطَّلِعون على كل ما يُقال و يقرؤون حول كل شيء، وهذا فيه إيجابية واضحة، هي الاندفاع نحو التجديد و توسيع الأفق و التخلص من تقديس الأشخاص و الأقوال، لكن السلبية التي بدأنا نلمسها اليوم هي ظن كثير من المثقفين أن في إمكان كل واحد منهم أن يقول ما شاء فيما يشاء، وهذا كان واضحاً جداً تجاه العديد من الفتاوى اللافتة للنظر، و كأنه ليست هناك قطعيات يتفق عليها

أهل العلوم المختلفة، ولا مرجعيات تفصل في الأمور المتنازع فيها، وهذه سلبية كبيرة في نظرنا؛ لأنها تبلبل أذهان الناس، و توقعهم في المزيد من الحيرة، لكن ليس هناك علاج حاسم لهذه المشكلة، سوى نشر ثقافة احترام التخصص و ثقافة الإعراض عن أولئك الذين يتحدثون في كل شيء دون أن يتقنوا أي شيء!

٣- الناس اليوم - و بسبب من الاطلاع الواسع على ما يجري، وعلى ما هو سائد في العالم- أخذوا يعيدون اكتشاف الكثير من الأشياء، و يعيدون تقييم نظرتهم لأنفسهم و واقعهم وماضيهم، ولا يخفى أن نظرة الناس إلى ما كنا نطلق عليهم الأسلاف العظام و الأئمة الأعلام قد تغيّرت، حيث يتبلور اليوم اعتقاد جديد يقول: إن السلف السابقين كانوا يرون الأشياء من واقع خبرة أقل من الخبرة المتوفرة اليوم، كما أن التراكم المعرفي الذي كان في زمانهم أقل بما لا يُقارن مما في حوزتنا اليوم، ولهذا فإن من المتوقع أن يمثل السابقون طفولة الوعي، وأن نمثل اليوم شبابه، هذا الاعتقاد يتجلّى في الجرأة القوية على الاجتهاد، كما يتمثل في الاستشهاد المكثف بأقوال فلاسفة و علماء معاصرين وغير مسلمين ينتمون إلى كل بلاد العالم و كل ألوان الطيف، وهذه الوضعية تعني الكثير الكثير، وستكون لها آثار كبيرة، من أهمها تشكل رؤية جديدة للحياة وللمستقبل الدنيوي والأخروي، وهذه الرؤية ستعتمد على مجموع رؤى العالم لذلك

المستقبل، و لن تكون المذهبية الإسلامية سوى أحد المكونات القوية لتلك الرؤية، على حين أن المذهبية الإسلامية كانت تنفرد في الماضي بتشكيل معظم طموحات الناس ومعظم نظراتهم للواقع والمستقبل.

٤ـ اتساع كل جوانب الحياة العامة، وتعدّد المعطيات ووجود عدد هائل من الأقسام و التفاصيل في كل شيء ولكل شيء سوف يجعل كل ما لدينا من نصوص و حكم وأقوال مأثورة غير كافٍ لتوفير مرجعية كاملة و كافية، وهذا سيدفع إلى التوسع في الاجتهاد والاقتباس من الثقافات الأخرى، و لهذا مخاطره التي لا تخفى؛ إذ لا يكفي أن تؤمّن مرشدات لتوجيه حياتك اليومية، بل عليك إلى جانب ذلك أن تحافظ على الاتجاه الاستراتيجي، وتبقى على تواصل مع أهدافك الكبرى، وهذا ليس بالسهل في ظل ما أشرنا إليه، وفي ظل تجاهله من قبل عدد كبير من المؤثرين في الرأي العام.

أعتقد أننا لا نبذل ما يكفي من التأمل والبحث والدرس في مآلات التحوّلات العاتية التي باتت تجتاح كل شيء، وإن فرص الاستدراك ما زالت موجودة، وإن علينا أن نفعل ذلك، وهذه من مسؤولية المثقفين الذين يملكون الرؤية، ويملكون الغيرة على مستقبل مجتمعاتهم.

تناقض السلوكيات

في جلسة عامرة بالتفكر والتثاقف، تمّ طرح السؤال التالي:

لماذا يبدو الإنسان الغربي في كثير من الأحيان أكثر تمسّكاً بمبادئه وآرائه، وأكثر صلابة في الدفاع عن قناعاته والعمل بها.. من كثير من المسلمين مع أنه لا ينتظر على ذلك ثواباً أخروياً، كما أن تلك الآراء والقناعات لا تستند إلى إطار عقدي نابع من دين أو وحي معصوم؟

وقد انتهى النقاش إلى تكوين قناعة لديّ تقوم على الآتي:

١ـ هذه الظاهرة موجودة لدى شريحة واسعة من العرب والمسلمين، وربما لمحها كثيرون في خلع النساء لحجابهن عند مغادرة أرض الوطن، وفي جملة من التناقضات في السلوك؛ إذ تجد بعضاً ممن يصلّون ويزكّون.. لا يتورّعون عن أكل الربا، وبعضهم يشربون الخمر، وبعضهم وبعضهم... وهذا كله يشير بوضوح إلى أن هؤلاء يمارسون شيئاً من التمثيل في بعض تصرفاتهم، ويعانون من تناقض حادّ في منظومة سلوكياتهم

الشخصية، هذه الظاهرة تختلف في حدتها من مجتمع إسلامي إلى آخر، لكنها موجودة في كل مكان.

٢ــ لا يقتصر ضعف التمسك بالقناعات على السلوك الأخلاقي، وإنما يتعدّاه إلى مجالات الإصلاح والتغيير؛ إذ تجد الإنسان في الغرب يتظاهر، ويحتجّ، وينفق الكثير من جهده ووقته من أجل إبراز ما يعتقد أنه وضعية خاطئة، وهاهم الغربيون يتقاطرون على فلسطين للاحتجاج على حصار غزة والجدار الفاصل... ولا نجد هذه الحماسة أو خمسها لدى كثير من العرب والمسلمين!

٣- هذه الظاهرة المزعجة تعود في تصوّري إلى عدد من الأسباب، منها:

أ- إن طبيعة التديّن تملي على الإنسان سلوكيات ومواقف وعلاقات قد لا تكون منسجمة مع بعض رغباته وتطلّعاته، وقد لا تكون منسجمة مع ما هو سائد في البيئة التي يعيش فيها، وكم اصطدمت رغبة الإنسان في الثراء السريع بالضوابط الشرعية في مجال اكتساب المال! وكم وجد الإنسان المسلم نفسه مطالباً بالكف عن شرب الخمر أو الزنا، وهو يعيش في مجتمع غير مسلم، ليس فيه من يجد في فعل ذلك أي حرج! وكم وجد الإنسان المسلم نفسه مطالباً بأداء الصلاة في وظيفة أو ميدان أو طائرة.. وليس إلى جواره

من هو مكلف بشيء من ذلك! وهذا أحد مظاهر العبودية لله رب العالمين، وهذا كله يحتاج من المسلم درجة عالية من الإيمان والوعي والشعور بالمسؤولية تجاه التكاليف الشرعية.

ب- المجتمع الإسلامي قائم في الرؤية الإسلامية على التكافل الأخلاقي والمادي، ونحن جميعاً نعرف مكانة النصيحة للمسلمين، ومكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شريعتنا الغرّاء، ولهذا فإن المجتمع المسلم ولاسيما في البيئات الصغيرة والضيقة يراقب تصرفات أبنائه بعيني صقر؛ انطلاقاً من الشعور بالمسؤولية تجاه استقامة الأفراد والقيام بواجباتهم الشرعية، وحرصاً على التضامن الأهلي والتماسك الاجتماعي وهذا يدفع كثيراً من الناس إلى أن يكون لهم سلوكان، خيرُهما الذي يظهر أمام الأعين، وشرُّهما الذي يفعلونه في السر، وقد لحظ بعض المؤرخين أن ظاهرة النفاق في المدينة لم تتضح إلاّ بعد غزوة بدر حيث صار للمسلمين بقيادة النبي منعة وسلطة، أي صار هناك ضغط واضح على أولئك الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم مع أن مصالحهم مع الإيمان، ولهذا كان النفاق عبارة عن تسوية رديئة بين تحصيل المصالح والامتثال لما صار سائداً ومهيمناً في مجتمع المدينة.

جـ- نحن اليوم نتعرض لدفق ثقافي هائل يتمحور كثير منه حول المتعة والسرور والترويح، وهذا التيار جعل الناس يتعرفون على أشكال جديدة من(إرضاء المزاج)، كما جعلهم يطلبون المزيد منه، ونحن نلمس اليوم نوعاً غير مسبوق من الاستسلام للرغبات والسعي نحو التغيير من أجل اكتشاف المزيد من أنواع المتعة، وإن الأرقام المتعلقة بشرب الخمور وأعداد المدخنين والمتناولين للمخدرات و(القات) والأرقام المتعلقة بالتصدع الأسري والطلاق والانتحار... إن الأرقام المتعلقة بكل ذلك في تصاعد مستمر مما يدلّ على أن هوة سحيقة باتت تفصل بين متطلبات الإيمان بالله تعالى والتصديق بكتابه، وبين نوعية السلوكيات التي يسلكها كثير من المسلمين في حياتهم الخاصة والعامة.

هذه مشكلة عويصة في الحقيقة، وهي لا تعني شيئاً أقل من شرخ عميق في شخصية الإنسان المسلم، و إن حلَّها يحتاج إلى كثير من التأمل والاجتهاد والعمل التطوعي والجماعي؛ وإمكانات الإصلاح دائماص موجودة ومتوفرة.

القيم الضامنة

يشهد العديد من البلدان الإسلامية في هـذه الأيـام الكثـير مـن الانشقاق والاقتتال الاجتماعي، ويشهد كثير منها نوعاً من الضعف في الأواصر التي تمنح مجتمعاتها التماسـك والـتلاحم، والحقيقـة أن كثـيراً مـن المجتمعـات الإسـلامية وغير الإسـلامية لا يسـتحق اسم(مجتمع) بل هي عبارة عن حشـود مـن النـاس الـذين جمعـتهم الأقدار في مكان واحد، وذلك لافتقـارهم إلى القـيم والمعـاني التـي تجعل منهم بنية بشرية متميزة ومتمايزة عن غيرهـا، وحـين تسـاءلت عما يشكل فارقاً بين(المجتمع) و(حشد الأجساد) أو بين(المجتمـع) و(السكان) وجدت أن لدينا خمس قيم جوهرية يضمن توفرُها لأي تجمع بشري الفوزَ بلقب(مجتمع) عن جدارة، وهذه القيم إسـلامية وكونية في آن واحد، ويمكنني تسليط الضوء عليها بإيجاز شديد، وذلك عبر المفردات الآتية:

١ـ الثقة:

تعني الثقة على الصعيد الاجتماعي وجود قدر جيد من اطمئنان الناس بعضهم لبعض في معاملاتهم اليومية. إنهم يشـعرون بوجـود

قدر من المصداقية لدى أكثرهم، ويشعرون بأن الخداع محدود الانتشار، والحقيقة أن الثقة جزء عزيز من رأسمالنا الاجتماعي، وعنصر أساسي في التنمية وفي العيش الهانئ.

الثقة هي ناتج تعامل الناس الجيدين مع بعضهم، وكلما لمسوا على نحو واضح وجود النوايا الطيبة والصدق والاستقامة والالتزام بالمواثيق والنظم السارية ارتفع مستوى الثقة السائدة بينهم، والعكس صحيح.

٢ـ العدل:

لا يستطيع أي وطن أن يجعل من نفسه محوراً يدور أبناؤه في فلكه، ويفخرون بالانتماء إليه من غير توفر حد معقول من العدل، والحرص على أن يأخذ كل ذي حق حقه. إن الظلم ليس ذا عاقبة سيئة فحسب، إنه في حد ذاته إفساد في الأرض، وهو قادر دائماً على أن يفتح أمام الشيطان كل الأبواب ليوسوس للمظلوم بكل أشكال الشرور، وإن التاريخ ليشهد بأنه حين يشيع الظلم لا يبقى شيء مقدَّس يمكن أن يتورع المظلوم عن ممارسته، حتى التآمر على الوطن.

أبسط صور العدل: هو العدل بين الأفراد، وهناك العدل بين المناطق، والعدل بين الأجيال، فلا يصح تركيز التنمية في منطقة، وترك الفتات لمنطقة أخرى، كما لا يصح لجيل أن يتمتع بخيرات الوطن، ويترك للأجيال التي بعده القشور والسموم والتلوث.

٣ الموضوعية:

لا يخلو مجتمع من مشكلات ومن كل الأنواع وعلى كل المستويات، وإن الناس في حاجة دائمة إلى أن يفهموا مشكلات بلادهم بأعلى قدر ممكن من الموضوعية والواقعية؛ فهذا يريحهم من جهة، ويدفعهم إلى التفاعل مع الحلول المقترحة لتلك المشكلات من جهة أخرى، وإن من مسؤولية الإعلام والإعلاميين العمل على تصوير تلك المشكلات بالدقة والنزاهة المطلوبة، ولاسيما عند الحديث عن جذور مشكلات البلاد وأسبابها، وما لم يتم ذلك فإن قسماً من الناس - على الأقل - سيشعرون أن الإعلام يتاجر بمشكلاتهم ومآسيهم، وهذا ينزع من النفوس الثقة بكل ما يُقال لهم، مما يجعلهم يُعرضون عن الانخراط في أي مشروعات وطنية ذات بُعد إصلاحي ونهضوي.

٤- الاحترام المتبادل:

احترام الإنسان للآخرين، هو فرع من احترامه لذاته، ولهذا فإن الواحد منا حين يتلقى إساءة من شخصٍ ما يقول له: احترمْ نفسك، لأنه حين يحترم نفسه، يحترم غيره، لكن الناس من وجه آخر لا يحترمون أنفسهم إذا لم يعاملهم الآخرون باحترام، والحقيقة أن لدينا الكثير من المشكلات التي لا يمكن حلها عن طريق القضاء أوالوعظ، وإنما يحلها الاحترام المتبادل، وإن من طبيعة الأشخاص المحترمين جداً أنهم يمنحون الاحترام لمن يستحقه، ولمن لا يستحقه.

احترام الآخرين يشتمل على احترام آرائهم وميولهم ورغباتهم، مادامت في إطار المباح والمشروع.

٥- الولاء:

هو الثمرة التي نقطفها من وراء وجود القيم الأربع السابقة، إذ إن الوطنية في معناها العميق هي الشعور بشرف إلى الانتماء إلى الوطن، وحين يكون هذا الشعور واضحاً وقوياً فإنه يبعث صاحبه على التضحية من أجل بلاده، ويدفعه إلى المساهمة في رفعتها بشتى الوسائل، وحين يُفقَد تصبح الوطنية عبارة عن بوابة لاقتناص الفرص والمكاسب. وقد قال أحدهم مرة: لماذا أدافع عن وطن لم يشبعني من جوع، ولم يؤمِّني من خوف؟!

حين ترى تفكك مجتمع، فإنك لن تستطيع استعادة ما فقده من تماسك من غير التخلص من الأسباب التي أدت إلى حدوث ذلك التفكك، وهذا يضعنا في مواجهة أنفسنا ومواجهة الحقيقة، ومن هنا تكون بداية الإصلاح..

مقاومة الجفاء(١)

ربما كان (الابتلاء) هو الشيء الأكثر حضوراً في حياة البشر؛ فنحن مبتلون في علاقتنا مع أنفسنا وفي علاقتنا مع غيرنا، كما أننا مبتلون في كل أحوالنا مهما كانت مقبلة أو مدبرة رخيّة أو شديدة...

ومن الواضح أن الإنسان ذو طبيعة معقَّدة ومركَّبة، وهذا يسمح له بالتأرجح بين أعلى درجات السمو وأدنى درجات الانحطاط، وذلك التركيب يتجسد في كثير من المواقف والعلاقات؛ فنحن نأنس بوجود الآخرين، ولا نتصور الأفراح الكبرى من غيرهم، لكننا أيضاً نخاف منهم، ونشعر أنه لا يستطيع أحد أن يُسعدنا ويُزعجنا أكثر من الناس الذين يحيطون بنا من الأقرباء والزملاء والأصدقاء، إنهم مصدر سعادتنا وشقائنا في آن واحد!

هذه الوضعية أيقظت الوعي البشري من سُباته، وجعلته حساساً جداً نحو التراجعات الأخلاقية على نحو خاص، وإذا رجعنا إلى أدبيات الأمم والشعوب فإننا نجد أنها على مدار التاريخ تحث على المراعاة والنعومة في التصرف، كما أنها تحث على خُلُق الإحسان والتضحية والبذل غير المشروط في الوقت الذي تحذر فيه

من الجفاء والغلظة والعدوان والظلم والكبر والتجاهل.. كلما أوغل الناس في الحضارة، وذاقوا طعم الرفاهية صارت معرفتهم بمصالحهم الخاصة أعظم، وصار حرصهم على رعايتها وحمايتها أشد، وهذا يُشعل روح التنافس على موارد هي في الأصل محدودة، ومع التنافس يظهر الكثير من السوء الكامن في نفوس البشر، و إن (العولمة) التي تجتاح العالم اليوم تؤكد على معنى النفوذ والتمدّد، كما أنها تؤكد على أهمية المتع الشخصية والمسرَّات الخاصة، و تهمل الحديث عن كل القيم والمبادئ التي تخفف من الصدام بين الناس، وتجعل علاقاتهم ندية ولطيفة، فهي لا تتحدث عن الرحمة أو التسامح أو التضحية أو البر أو التساهل في المعاملة... وقد بدأنا نرى آثار أدبيات العولمة في تصرفات كثير من الشباب؛ إذ تشعر أن الواحد منهم يبدو وكأنه لا ينتمي إلى أسرة ولا إلى دين ولا إلى وطن، إنه مشغول بالبحث عن أشياء يظن أنها توفر له اللذة والسعادة، ولا يبالي إن كانت تلك الأشياء سوف تسبب الأذى لكثير من الناس!

يتم كل هذا في الوقت الذي يزيد فيه الناس في مستوى ما يتوقعونه من بعضهم من التفهم واللطف والتأنق في التعامل؛ لأن التقدم الحضاري يرفع مستوى الطموحات في كل شيء،وقد أخبرني أحد الأطباء أنه منزعج غاية الانزعاج من طريقة قيادة الناس

لسياراتهم في البلد الذي يعمل فيه، وأن ذلك يُسبِّب له الكثير من الأذى والاستفزاز، وقد سمعت بعد ذلك أنه انتقل من ذلك البلد إلى بلد آخر بسبب ما حدثني عنه.

إن الآداب الشرعية أكّدت على نحو واسع جداً على التخلق بالأخلاق الحسنة في تعامل الناس مع بعضهم البعض، ورتَّب الشارع الحكيم على السلوكيات الفاضلة أعظم الأجر والثواب، وما زال أهل التدين والالتزام يتفاعلون مع تعاليم الشريعة الغرّاء، ويهتدون بهديها، لكن هناك أمران:

الأول: هو أن استيعاب الناس للآداب الشرعية متباين إلى حد كبير، كما أن امتثالهم لما استوعبوه والتزامهم بتنفيذه أيضاً متفاوت تفاوتاً كبيراً، وعلى سبيل المثال فإن نسبة المصلين في بعض المجتمعات الإسلامية لا تتجاوز الثلاثين في المائة، وإن من فرّط بأداء هذه الفريضة العظيمة لن يمتثل لما دونها مما هو معدود في الآداب والفضائل.

الثاني: هو أن من تصرفات الناس ما هو جزئي وتفصيلي جداً، ولهذا فإننا لا نجد بشأنه أحكاماً أو توجيهات محددة، وإنما هناك توجيهات عامة، وهذا يجعل الناس يتراخون في شأنه، ولا يبالون به، ومن هنا فإن الناس لجأوا إلى تأسيس أعراف حسنة تقوم على المروءة، والشهامة، والرجولة، والنبل، والكياسة، والأصالة،

والتضحية، وتركوا للمجتمع أمر تطويرها، والرقابة على الالتزام بها، ومعاقبة من يتهاون بشأنها، ويبدو أن غموض ما يُراد عند إطلاق لفظ مثل(المروءة) أوجد نوعاً من الارتباك في التعامل معه، وحين يكون الارتباك يكثر التساهل والتحلل من الالتزام، وهذا ما جرى ويجري اليوم؛ ويذكرون في هذا السياق عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ما حمل الرجال حملاً أثقل من المروءة، فقال له أصحابه: أصلحك الله، صفْ لنا المروءة، فقال: ما لذلك عندي حد أي تعريف أعرفه، فألحَّ عليه رجل منهم، فقال: « ما أدري ما أقول إلاّ أني ما استحييت من شيء علانيةً إلاّ استحييت منه سراً ». هذا والله قمة الأصالة وقمة المروءة؛ لأن المجتمعات الضيقة والصغيرة تضغط بقوة على أبنائها وتقيّد إيقاع حركتهم، وهذا يدفع كثيرين منهم إلى أن يكون له سلوكان، خيرُهما ما يظهر للناس، وفي هذا من الرياء، وضعف النفس، وانقسام الشخصية ما لا يخفى.

إن تعاليم الإسلام تشير إلى أن الجفاء مع الناس هو جفاء مع أعماق الذات، كما أن مجافاة الذات لا بد أن تظهر في خشونة التعامل مع الناس، ولا بد من مقاومة كل منهما حتى لا نمضي في طريق التدهور والانحطاط.

مقاومة الجفاء(٢)

كان العرب قبل الإسلام قبائل متفرقة، وكان عهدهم بالأنبياء والكتب السماوية قد اندرس، ومنهم من لم يكن له ولا لآبائه عهد بأي شيء من ذلك، وكان لا بد من توفير بعض الأعراف والنظم والأخلاقيات التي تخفّف من عدوان الناس بعضهم على بعض، وتوفر مظلة للأمن والأمان، كما أنها تمكِّن الناس من التنبّؤ بسلوك بعضهم بعضاً حين لا تكون هناك معرفة، وتضفي الى جانب ذلك على الحياة العامة بعض معاني التسامي... وقد نجح العرب في ذلك نجاحاً باهراً؛ فقد أسّسوا فعلاً نظاماً غير مكتوب، لكن يفتخر بالامتثال له كل الناس، ويتفنون بسرد أدبياته، وذلك النظام يقوم على مكارم الأخلاق، وعناوينُه الكبرى هي الفروسية والمروءة والشهامة والرجولة، ولا أريد أن أفيض في هذا الأمر الآن، لكن أودّ أن أقول: إن الإسلام جاء ليؤكد هذه المعاني، ويمنحها رسوخاً فريداً من خلال منحها مرجعية جديدة؛ إذ صار الكثير من تصرفات ذوي المروءة والرجولة عبارة عن أعمال جليلة يتقرب بها المسلم إلى

الله تعالى وينتظر عليها المثوبة منه، وقد ذكر ذلك رسول الله ﷺ بعبارة موجزة حين قال ﷺ: «إنما بُعثت لأتمّم صالح الأخلاق».

وقد كان حاتم الطائي واحداً من أشهر رجالات العرب الذين سارت بذكرهم الركبان؛ إذ كان لا يُشقّ له غبار في البذل والكرم وإقراء الضيف، وحين أسر المسلمون سفانة بنت حاتم أمر رسول الله ﷺ أصحابه بإكرامها، وقال ﷺ:«إن أباها كان يحب مكارم الأخلاق».

إن الالتزام الدقيق بالإسلام، وقبل ذلك الوعي بأبعاده الحضارية وأدبياته في الارتقاء بالذات يدفع بالإنسان فعلاً إلى السير في طريق النبلاء وأولي الشهامة والمروءة، لكن التاريخ والواقع يدلان على أن الثقافة الشرعية الجيدة والتربية على أدبيات الإسلام في السلوك والمعاملة كانت تشكو دائماً من المدّ والجزر، وأظن أنه حين يضعف التزام مجتمع من المجتمعات الإسلامية بتعاليم الدين فإنه يلجأ إلى المروءة والشهامة والشرف وطيب النفس والرجولة؛ بوصفها جزءاً من نظام أخلاقي يؤمّن للناس درجة من النبل وحسن المعاشرة، ويؤمّن ركائز للإحسان إلى الناس والتفضّل عليهم، وقد ذكر الشعبي رحمه الله في نص نادر ولافت ما يشير إلى هذا؛ فقد رُوي عنه أنه قال: « تعامل الناس بالدين زماناً طويلاً حتى ذهب الدين، ثم تعاشروا بالمروءة، ثم تعاشروا بالحياء، ثم تعاشروا بالرغبة والرهبة، وسيتعاشرون بالجهالة

وقتاً طويلاً». ولا أريد أن أدقق في كلام الرجل، أو أبدي وجهة نظري فيه، لكن ما قاله صحيح في مسألة اللجوء إلى المروءة وإلى السلطة والضغط الاجتماعي بوصفها سبلاً وأساليب وأدوات لتوفير أجواء الثقة والأمان، وحدٍ أدنى من هامش التمدّن. بعض الناس ينظرون إلى معاني المروءة والشهامة على أنها خندق أمامي ندافع من خلاله عن معاني التديّن، ويُروى في هذا السياق قول الحسن البصري: «لا دين إلاّ بمروءة»، وقد أشار إلى هذا المعنى أحمد شوقي حين قال:

ومن المروءةِ وهي حائطُ ديننِا
أن نذكرَ الإصلاحَ والإحسانا

الذي أريد أن أقوله هنا: هل في إمكاننا اليوم أن ننعش من معاني المروءة والرجولة والفروسية القديمة ما يتناسب مع أدبيات الإسلام، وينسجم مع رؤيته الحضارية، لندخلها في الدستور التربوي على مستوى الأسرة ومستوى المدرسة، ونعمل على نشرها وتثقيف الناس بها من خلال وسائل الإعلام المختلفة؟ قد سُئِل أحدهم عن الفرق بين المروءة والعقل، فقال في لفتة ذكية وبارعة: المروءة تأمرك بالأجمل، والعقل يأمرك بالأنفع.

إن ثقافة العولمة اليوم تدلّ الناس فعلاً على الكيفية التي يحققون بها كثيراً من مصالحهم الشخصية، وتدلهّم كذلك على الأساليب التي يقتنصون بها المتع والملذات الخاصة، لكنها لا تدلهّم أبداً على فعل الأجمل والأكمل والألطف والأسمى... إن الذي يراجع ما قاله

السابقون في تعريف الفتوة والمروءة يجد أنهم كانوا يتحدثون عن مفردات نظام للتسامي الشخصي، نظام يقوم على صيانة النفس وترفّعها عن الدنايا، كما يقوم على البذل والتضحية والعطاء وحسن التدبير و التصرف، ولعلي أسرد شيئاً من ذلك حتى تصبح الصورة أوضح: قال ربيعة بن عبد الرحمن: للسفر مروءة، وللحضر مروءة؛ فمروءة السفر بذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساخط الله تعالى، والمروءة في الحضر: إدمان الاختلاف إلى المساجد، وتلاوة القرآن، وكثرة الإخوان في الله تعالى.

من المروءة إصلاح المال وتثميره؛ ففي ذلك صون للنفس عن الحاجة إلى الناس.

نشر الجميل وستر القبيح مع ملازمة التقوى.

لزوم الحياء، والتواضع، وحفظ الأسرار، والإعراض عن الجاهلين.

استكثار القليل من المعروف، والاحتفال به، والشكر عليه.

ترك الخصام، والمعاتبة، والمماراة، والتغافل عن العثرات.

التفضّل على الناس وتقليد المنن أعناق الرجال.

إننا اليوم في حاجة إلى نظام للكياسة وحسن العشرة يؤازر ما لدينا من مفاهيم وأعراف تربوية صالحة حتى نواجه الجفاء، والتغوّل، والأنانية، والانسياق خلف الشهوات والمتع الرخيصة.

الإجماع الثقافي

لا نعني بالثقافة هنا العلم أو المعرفة، وإنما نعني ما يشكِّل ذات الأمة، أو ما نسميه أحياناً بـ(العقل الثاني) وهو ذلك الكلّ المركَّب من العقائد والمفاهيم والمعارف والنظم والعادات والتقاليد والرموز السائدة في بيئة معينة. ولا نعني بالإجماع هنا أن يتفق الناس في كل صغيرة وكبيرة وكل شاردة وواردة، فهذا غير ممكن، وإذا وجد فإن وجوده يعني بدائية المجتمع وافتقاره إلى التجديد والنمو، وإنما نعني به تلك الأصول والكليات والأهداف والأعراف التي تعطي لتجمع بشري معين استحقاق لقب(مجتمع).

نحن المسلمين نملك كل المقومات الثقافية التي تجعل الناس في كل بلد متحابين مترابطين متعاونين بشرط أن نصغي إلى صوت التوحيد والتدين الحق الذي يجول في أعماقنا، وأي شيء يدعو إلى الإجماع الثقافي أقوى من اعتقاد المسلم بأنه يحمل جزءاً من المسؤولية الأخلاقية عن استقامة أهله وجيرانه وزملائه وكل من يختلط بهم من الناس؟ إنه ليس مسؤولاً عن استقامتهم فحسب، وإنما يشعر أنه مسؤول عن إرشادهم لما فيه صلاح أمور دينهم ودنياهم، وهذا هو

المعنى العميق لـ(النصيحة) حيث ورد أن بعض أصحاب النبي بايعوه على الإسلام، فشرط عليهم أن يبايعوه على النصح لكل مسلم. غايتنا الكبرى محددة، حيث إن أكبر أمنية لكل مسلم مهما كانت درجة التزامه هي الفوز برضوان الله تعالى ودخول الجنة، وملامح الطريق الموصلة إلى ذلك واضحة في أذهان كثير من المسلمين، إذن أين المشكلة، أو ما المطلوب منا أن نقوم به؟

المشكلة تكمن في أن القدر الذي كان متوفراً من الإجماع الثقافي قبل نصف قرن من الآن آخذ في التصدع بسبب الدفق الثقافي الهائل القادم من كل مكان، وبسبب تسلط وعي الناس على أمور كثيرة لم تكن يوماً ما موضع نقاش، وما تسلط الوعي على شيء إلا حوَّله من شيء مجمع عليه إلى شيء مختلف فيه. مشكلة الشقاق الثقافي أنه يشبه السرطان أو بعض أنواعه، فلا تظهر أعراضه إلا بعد أن يكون قد فات أوان علاجه، لكن أهل العلم والبصيرة يرون المحن وهي مقبلة، أما معظم الناس فلا يرونها إلا إذا اكتووا بنارها!.

نستطيع القول: إن كل مجتمع يحتاج إلى شيء يكوِّن الصفة الغالبة عليه، أو يكون بمثابة المحور لكل أوصافه، وليس لدى أمة الإسلام أي شيء يمكن أن يكون مركز استقطاب لكل نزعاتها الثقافية سوى(الالتزام) بمبادئ الإسلام وأخلاقه وآدابه حيث انتهى عصر القوميات، كما أن الثقافات الوطنية قد أفرغت منذ زمن

بعيد كل حيويتها وكل قدرتها على توليد الانتماء في الثقافة الإسلامية العتيدة، وشواهد الحاضر تؤيدها ما نقوله بقوة.

نحن نحتاج من أجل ترسيخ(الإجماع الثقافي) إلى أمرين كبيرين:

١ـ التركيز على التربية الأسرية، ونشر الوعي بأهميتها في صياغة الشخصية المسلمة، والحقيقة أن الذي ثبت هو أن بصمة الأسرة هي البصمة الأقوى والأبقى في شخصية الإنسان، وفي كل مراحل حياته، فإذا كانت بصمة صالحة راشدة خيرة، فإن المأمول بعد توفيق الله تعالى هو استقامة الأبناء وصلاحهم.

٢ـ حركة اجتماعية نشطة تنشر الخير وروح التضامن الأخوي، وتعمل بجد على معالجة المشكلات الاجتماعية من أفق شرعي، كما تعمل على محاصرة الشرور و كل أشكال المعاصي التي تلوِّث الشارع المسلم، وتنتهك الأعراف الصالحة، وهذه الحركة حتى تكون فعالة ومؤثرة وشاملة، فلا بد أن تستمد زخمها من عدد كبير من المؤسسات الاجتماعية ذات النفع العام وذات البعد الثقافي أيضاً.

التجديد الأخلاقي (١)

يشكل جمود الوعي مصدراً كبيراً لكثير من المشكلات، ومنها المشكلات التي تمس القضايا الأخلاقية؛ فنحن في تصورنا للمآزق والحلول الأخلاقية ما زلنا نفكر بالعقلية التي كنا نفكر بها منذ نصف قرن، حين كان الناس يعيشون في البوادي والقرى والقليل من المدن الصغيرة، وحين كان الناس يعيشون معزولين عن العالم الخارجي، ويعملون في أعمال بسيطة، كما أن وعيهم بمصالحهم كان محدوداً..

إن كل هذا قد اختلف وتبدّل تبدّلاً واضحاً، ومن الطبيعي أن تختلف مع كل هذا تصوراتهم للطمأنينة والسعادة، وتختلف كذلك طموحاتهم وأشكال التواصل بينهم، وليس في هذا ما يقلق، لكن الذي يقلق فعلاً هو عدم وجود قدر كافٍ من الوعي بما يحدث من تغيرات شبه جذرية على صعيد الأخلاق والقيم الفردية والاجتماعية، مما يؤدي إلى برودة ردود أفعالنا عليه، وتخلّف مشروعاتنا الإصلاحية.

إن التديّن الصحيح هو الذي يقدم للمسلم التوازن على الصعيد النفسي، ومن خلال وجود أفراد كثيرين متوازنين نفسياً يتكون مجتمع مسلم متوازن. وأعتقد أن مساقات التوازن كثيرة جداً لكن أهمَّها مساقان:

١- التوازن بين الروحانيات والماديات.

٢-التوازن بين الشؤون الفردية والشؤون الاجتماعية، أو بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة.

قد كان تحقيق التوازن سهلاً في الماضي على الصعيد الأول بسبب بساطة الحياة وقلة الضغوطات المادية والمعيشية، وكان المجتمع المحلي بما فيه من تلاحم وتفاهم وتعاون يؤمِّن درجة جيدة من التوازن بين الخاص والعام، وكانت مشكلات الفساد المالي والإداري محدودة بسبب قلة الإمكانات التي بين أيدي الناس، مما جعل تحقيق المصلحة الشخصية على حساب المصلحة العامة محصوراً في نطاق ضيق جداً.

إن كل هذا قد اختلف اليوم على نحو مثير، ويحتاج إلى علاج عاجل.إن اللغة التي يستخدمها الناس في حياتهم اليومية على نحو عفوي وتلقائي توضح إلى حد بعيد اهتماماتهم الأخلاقية، كما تشرح سلم القيم لديهم، ولعلكم تلاحظون كيف يتضاءل على نحو مستمر استخدام الكلمات الدالة على الزهد،والورع، والموت،

وعذاب القبر، وأهوال الحشر، والدالة على الرحمة، والمروءة، والشجاعة، والشهامة، والتضحية، والصدق، والأمانة.. وذلك لصالح انتشار الكثير من الكلمات الدالة على معانٍ شبه مضادة للمعاني السابقة، وذلك من نحو: النجاح، والشطارة، والثروة، والشهرة، والقوة، والربح،والمتعة، والنفوذ، والسعادة، والجرأة والمغامرة، وتحقيق الذات، والتأثيرفي الآخرين، والوعي بالمصلحة الشخصية..و تلاحظون أيضاً أن الكلمات التي تراجع استخدامها تتصل بشيئين مهمين:

الأول: الانشداد إلى الآخرة والتفكير بالمصير النهائي للإنسان.

الثاني: الاستقامة الشخصية والإحساس بهموم الآخرين والعمل على مساعدتهم.

إن الفساد على الصعيد المالي والإداري كثيراً ما يعني تحويل العام إلى خاص، أي استحواذ بعض الناس على ما هو عام، من حق الجميع الاستفادة منه والانتفاع به على نحو شخصي، أما الفساد على الصعيد الاجتماعي، فإنه كثيراًما يعني وهن القوى اللاحمة للمجتمع والمهتمة بشأنه العام، أي - بعبارةأخرى- انكباب الناس على إصلاح شأنهم الشخصي- والانصراف عن رعاية الشأن العام، والبذل في سبيل المصلحة العامة، وهذا يحدث اليوم لدينا على نطاق واسع بسبب ضعف التجديد الروحي على الصعيدالفردي، وبسبب

ضعف التربية الاجتماعية، وضعف وندرة المؤسسات التي يوظف فيها الناس طاقاتهم من أجل خير المجموع.

نحن بالطبع لن نعمل على تجديد اللغة، ولكن علينا أن نعمل على تجديد القيم التي تعبر عنها اللغة، وهذا التجديد يحتاج إلى الآتي:

١- شيء جيد أن ندرك أن كل الأخلاقيين في العالم يتحركون ضد روح العصر، وضد مصالح القوى المحركة له، هذا بالإضافة إلى أن تجديد الأخلاق يحتاج إلى تجديد الإدراك والوعي والنفس والسلوك، وهذه أشياء كبيرة جداً، ويحتاج تجديدها إلى وقت طويل.

٢- في كل دول العالم حكماء ومفكرون كبار يشعرون بقريب مما نشعر به، وهم يقومون ببذل جهود كبيرة من أجل تجديد ما يعتقدون أنه أخلاق أساسية لشعوبهم، ولديهم أفكار نيّرة في هذا الشأن يمكن لنا أن نستفيد من كثير منها.

٣- إن كل بلد إسلامي يحتاج إلى مركز كبير وقوي من أجل رصد التطورات الإيجابية والسلبية التي تطرأ على أخلاقيات مجتمعه على مستوى الفرد والأسرة والمجموعات، وهذا الرصد بالغ الأهمية، والأرقام التي تصدرعنه ستشكل مادة ممتازة لكل العاملين في حقول الدعوة والإعلام والتربية والإرشاد الاجتماعي.

٤- على المدارس أن تهتم اهتماماً شديداً بما يمكن أن نسميه (التدريب الأخلاقي) وذلك من أجل تنمية روح التطوع والإيثار

والصدق والجدية.. في نفوس طلابها، وبعض المدارس في بعض الدول المتقدمة تدرّب طلابها على أشياءكثيرة من هذا القبيل، منها - على سبيل المثال- التدريب على حل النزاعات بين الأقران والزملاء!

٥- كل واحد منا مطالب من أجل أن يصبح التجديد الأخلاقي حقيقة واقعة بأن يجعل من نفسه قدوة لمن حوله في خلق من الأخلاق الحميدة؛ إذ إن عدوى الأرواح والنفوس قريبة من عدوى الأجسام.

إن القدوات يؤثِّرون فينا على نحوصامت، ويدفعون بالفضائل إلى سطح الوعي، والأمة في حاجة إلى أكبر عدد منهم.

التجديد الأخلاقي (٢)

هناك مسألة تُعدّ مصدراً للحيرة والاختلاف على مدار التاريخ وامتداد العالم، وتلك المسألة تتجسد في نوعية العلاقة التي ينبغي أن تربط بين الفضيلة والحرية، وإلى أي مدى يمكن للدولة والمجتمع أن يحملا الناس على التخلق بالأخلاق الفاضلة وعلى أداء الشعائر، ويمكن القول بعبارة أخرى: إن المشكلة هي: كيف يتم ترسيخ الأخلاق في المجتمع، وإعادة بناء القيم في مجتمع متحلل أخلاقياً؟ هذه المسألة من المسائل التي لا تقبل الحسم النهائي، وبالتالي فإن المتوقع هو استمرار الجدل فيها إلى ما لا نهاية، ولكن مع هذا فإن من الممكن أن نضع على طريق النظر فيها بعض العلامات والمرشدات، وهي في الحقيقة أكبر من أن يتسع لها مقال، ولهذا فسأذكر أهمها:

١- إن الذي ينظر في القرآن الكريم والحديث الشريف يجد فيضاً من النصوص التي تحث المسلم على الاستقامة الشخصية، وتحثه على المبادرة إلى ذلك على نحو طوعي، وذلك من خلال توضيح الثواب العظيم، وتوضيح العقوبات الأخروية الشديدة على الطاعة والمعصية، وفي المقابل نجد القليل من الحديث عن الحدود

والعقوبات، والقليل من الحديث عن واجبات الحكومات في نشر الفضائل وإلزام الناس بها، وهذا كله يدل على أن ترسيخ الأخلاق الفاضلة في حياة الناس وفي مجتمعاتهم يحتاج أكثر ما يحتاج إلى اقتناع الناس بها وإلى حماستهم للعمل بمقتضاها.

٢- كثير من الناس يخلطون بين أمرين متباينين: إنشاء المجتمعات وحمايتها. إن إنشاء المجتمعات لا يتم عن طريق القهر والضغط، والإكراه، وإنما يتم عن طريق الإقناع، وعن طريق الجاذبية التي يتمتع بها أصحاب الخلق الرفيع، والحقيقة أن الأخلاق لا تُفرض فرضاً، لكن تُغري الناس بالتخلق بها عن طريق الإعجاب بسلوك أهل القدوة والأسوة، ونجد هذا المعنى واضحاً في قول الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]. وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وأخبر نوح عليه السلام قومه بأنه لا يستطيع إلزامهم بشيء يكرهونه، فقال: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود:٢٨].

إن الدعوة والتربية والجهد الإعلامي المميز، والإقناع وما تشعّه أشخاص الملتزمين من مثُل وقيم هي التي تبني الأمم والمجتمعات على أسس الفضيلة، وحين تقوم المجتمعات فإنها تحتاج حينئذ إلى حماية، وتكون العقوبات والأعراف الاجتماعية والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الأدوات

المستخدمة في تلك الحماية مع الاستمرار الجاد في الدعوة والتربية. إن المجتمع حين يغلب عليه التحلل فإن فاعلية العقوبات تتراجع، والعالم الغربي يشهد اليوم المزيد من فتح السجون والمزيد من الجرائم أيضاً، وشيء من هذا ملموس في كثير من البلدان الإسلامية أيضاً!

٣- حين يضعف المجتمع وتُصاب مؤسساته بالركود فإن الناس يُهرعون إلى الحكومات كي تصون الفضائل التي يؤمنون بها، وهم في ذلك مخطئون، وهم مستمرون في ذلك مع أنهم يتذوقون مرارة الخذلان على نحو مستمر، وما ذلك إلاّ لأن هذا مما لا تستطيع الحكومات القيام به، إنها في أحسن الأحوال تساعد على تحسين المظهر الخارجي للمجتمع، لكنها لا تستطيع إعادة تشكيل ضمير الفرد والسمو بجوهر الأخلاق الاجتماعية، فالله تعالى فطر العباد على الاعتزاز بما يفعلونه عن طريق الاختيار الشخصي والإرادة الحرة، كما فطرهم على النفور والمعاندة والممانعة تجاه كل ما يُفرض عليهم مهما كان نقاء الجهة التي تحاول إلزامهم بما لا يميلون إلى الالتزام به. ولهذا فإن الجهد الأساسي الذي ينبغي أن يُبذل في ترسيخ الفضائل والقيم هو الجهد الذي يبذله المجتمع، وليس الحكومة.

٤- إن التاريخ ليشهد بأن الناس يرون في بذل الجهد الدعوي والتربوي بوصفه أداة للإصلاح شيئاً عقيماً، وعظيم التكاليف،

ويدعو إلى السأم والقنوط، ولهذا فإنهم يسارعون إلى استخدام شيئين: الإفراط في استخدام القوة والإفراط في سن القوانين، ولكن يتبين لهم بعد ذلك أن الوضع لم يتحسن، لكنهم لا يتراجعون عن ذلك، ولا يتوقفون من أجل المراجعة!

٥- إن من المهم أن ندرك أن العقوبات والقوانين الصارمة والقيود الثقيلة على حركة الناس ستكون قليلة النفع وضعيفة الفاعلية حين يتآكل السند الأخلاقي لها، والذي يتمثل في إيمان الناس بالفضائل وحماستهم لها، واستعدادهم لشيء من التضحية من أجلها.

٦- إن القوانين تنهار حين ينهار الإجماع الأخلاقي لدى المجتمع، وإن التوسع في العقوبات لا يقضي على الرذائل، لكنه يساعد على تحويلها من شيء ظاهر إلى شيء مخفي، وبهذا ترتاح ضمائر كثير من الناس؛ لأنهم لا يرون المنكرات على نحو ظاهر، لكن الأدواء الخلقية الفتّاكة تستمر في عملها ليتحول المجتمع إلى هيكل مجوف من الفضائل فيكون أشبه بالأشجار القائمة على سوقها، وإن كان الموت قد أجهز على كل إمكانات الحياة فيها!

أمير الركب

من الأقوال المأثورة عن العرب (الضعيف أمير الركب) ومنها كذلك: (سيروا بسير أضعفكم)، ومعناهما واحد، إلا أن الأول أبلغ؛ إذ يشير إلى أن الناس حين يكونون في سفر، فإن عليهم أن يسيروا بسير صاحب الدابة الضعيفة، وكأنهم يأتمرون بأمره، وذلك من أجل الحفاظ على وحدة الركب وتضامن المسافرين، وهذا القول الموجَز البليغ يصلح لأن يكون نبراساً ومرشداً في ترتيب أوضاعنا الاقتصادية، ولاسيما في هذه الأيام التي نجد فيها سباقات يومية محمومة لتسجيل أرقام قياسية في الكثير الكثير من مظاهر الحياة، وإن هناك من بذلوا الكثير من الأموال، كما أن هناك من خاطروا بأنفسهم من أجل الدخول في موسوعة(جينيتس) للأرقام القياسية!

إن العولمة هي حركة استثمار الأقوياء في الضعفاء، وبما أننا نعيش في عصر العولمة، فإن كل الأنظار مشدودة إلى ما يفعله الأقوياء، وإلى ما يؤسس للقوة والجبروت والتسلط؛ فقد أصبح القوي هو أمير الركب، وصار على الضعيف أن يتخلص من ضعفه، أو يتحمل قدراً هائلاً من المعاناة.

ولعلي أقدم في هذه القضية الملاحظات الآتية:

١- إن الله تعالى أرسل الرسل، وأنزل الكتب لهداية الخلق، وإشاعة معنيين مهمين، هما الرحمة والعدل، ولهذا فإنه يمكن للمنجزات الحضارية أن تستمر طويلاً إذا قامت على هذين المعنيين العظيمين، وإن حلول القوة في موضع الرحمة، والظلم في موضع العدل من أشد ما يعجِّل بحصول التدهور، والدخول في نفق الانحطاط.

٢- حين نركِّز على إبراز ثروات(المليارديرات) والأبراج الشاهقة والمصانع العملاقة، فإننا نولِّد مشاعر ومفاهيم زائفة حول التقدم والتحضر، مع أنني أسلِّم بأن لهذه الأشياء دلالاتها الخاصة المعبرة عن الحراك العمراني والصناعي، لكن الدفع بالإنجازات الكبرى إلى سطح الوعي يخفي تحته شيئاً سيئاً للغاية، هو إسدال الستار على الكثير من أشكال البؤس الإنساني؛ بسبب فقد العدالة، وتكافؤ الفرص، و بسبب اختلال خطط التنمية، وتدهور التعليم...ومن هنا فإن المقياس الحقيقي للتحضر والتمدن هو ما نحرزه من نجاح على صعيد تحجيم مؤشرات الضعف في الأمة، وهي كثيرة، من أهمها:

الجهل، والفقر، والمرض، والظلم والاستبداد، والإحباط، والانحراف السلوكي، والانكفاء على الذات.. إن علينا ألاّ نتحدث

عن أعداد العاملين في المصانع، وإنما عن التقدم في تقليل الباطلين عن العمل، وألاّ نتحدث عن أعداد الذين حصلوا على جائزة نوبل، وإنما عما تمّ إنجازه على صعيد محو الأمية، وألاّ نتحدث عن عدد الأبراج في مدننا الكبرى، وإنما عن عدد الذين نقلناهم من(مدن الصفيح) لينعموا بحياة كريمة ومطمئنة..حين نفعل هذا فإن الضعيف يكون فعلاً هو أميرَ الركب.

٣- من الأمور البالغة السوء أن يكون(٢٠٪) من المجتمع قادرين على شراء كل شيء، وأن يكون(٧٠٪) منه غير قادرين على الحصول على الضروريات! إن هذه الوضعية تُشيع العديد من ألوان الفساد في حياتنا الاجتماعية؛ إذ يصبح من المألوف أن ينحرف كثير من الناس بسبب الترف، وينحرف كثيرون آخرون بسبب الفقر والحاجة! ومع أن من المهم الإبقاء على حرية الكسب، وعلى أن يقطف المرء ثمار جهده، إلاّ أن من المهم جداً أن يكون لدينا نظم صارمة وواضحة تساعد على تقليل الفوارق الطبقية، وإن غياب تلك النظم أدّى إلى أن نجد في المدينة الواحدة مَن دخلُه ثلاثون ألف دولار، ومن دخلُه ثلاثمائة دولار، فكيف يمكن لأولئك وهؤلاء أن يشكّلوا معاً مجتمعاً متلاحماً متراحماً، يحصل على فرص واحدة، ويسعى إلى تحقيق أهداف موحدة؟ إن اليابان تقدِّم نموذجاً في هذا الشأن؛ إذ إن الفارق بين مرتَّبات المدراء والعاملين في الشركة

الواحدة هـو في حـدود تسـعة أضـعاف، أي أقـل مـن(١٠٪) مـن الفوارق الموجودة في كثير من شركاتنا ومؤسساتنا!

أعتقد أن إصلاح هذا الخلل وإنعاش أوضاع الفئات الأشد بؤساً يتطلب عدداً من الإجراءات الصارمة:

أ- تحديد حدٍ أدنى للأجور حتى لا يستغلَّ الغنيُّ الفقير.

ب-تحديد حـدٍ أعـلى لرواتـب كبـار المـوظفين وتحديـد حجـم المكافآت التي تمنحهم إياها مؤسساتهم وشركاتهم.

ج- التشديد على أهمية إفصاح كبار الموظفين عن حجم ثرواتهم عند التعيين، وإلزام كل من يريـد شراء منـزل أو سـيارة أو أي شيء آخر قيِّم بالإفصاح عن مصادر المال الذي يريد دفعه لذلك.

د- تنشيط العمل التطوعي والخيري من أجل مساعدة العناصر التي تعيش في ظروف صعبة وقاهرة؛ فالعمل الخـيري يشـكِّل دائـماً استدراكاً على قصور النُّظُم، كما يشكل كرَّة أخرى على طريق العدالة الاجتماعية.

إن جعل الضعيف أميراً للركب قادر على تغيـير حياتنـا المدنيـة، وإضفاء مسحة جديدة على علاقاتنا الاجتماعية، وعلى رؤيتنا لمفهوم التضامن الوطني.

صورتان متقابلتان

نستطيع القول: إن لكل شيء من الأشياء وجودين الأول: وجود ذاتي، طابُعه العام الاستقلال، والثاني: وجود (علائقي) طابُعه العام الافتقار والاتصال، ونحن في العادة لا نهتم بالوجود الثاني، ولا نبحث فيه لأن تركيزنا كثيراً ما يكون على الوجود الذاتي، مع أن الذي ثبت أن ما حولنا يؤثر فينا على نحو طاغٍ إلى درجةٍ يصح معها القول: إن الشيء هبة علاقاته. ولا أريد الآن شرح هذه المسألة، وإنما أود الإشارة إلى شيء مهم هو تفاوت الناس في نظرتهم إلى الأشياء والمعطيات المحيطة بهم، وهذا التفاوت نابع من ارتباك الوعي في التعامل مع كل ما يتصل بعالم العلاقات، فإحساسنا بأننا مختلفون عما حولنا يجعلنا نشعر بالكثير من المشاعر المتناقضة.

وإذا أردنا المضي مع الأمور إلى حدها الأقصى، فإننا سنقول إن لدينا في تعامل لناس مع محيطهم صورتين متقابلتين: صورة طابعها التنافس وصورة طابعها المؤازرة والتعاون، ولعلي ألقي الضوء على كل منهما عبر المفردات الآتية:

صورة العداء والتنافس:

حين يتضخم الشعور بالوجود الذاتي على حساب الوجود العلائقي، فإن المتوقع حينئذ هو جنوح الإنسان إلى جعل علاقته بمحيطه وبيئته قائمة على التناقض والتنافس والعداء: إما أنا، وإما من حولي، وبالتالي فإن الهمَّ الذي يسيطر عليه حينئذ هو كيفية استغلال علاقته بالأشياء لحسابه الشخصي، إنه إنسان مشغول بالأخذ والاستحواذ، ولا يمثل (العطاء) بالنسبة إليه أي هم أو هاجس، بل هو الشيء الذي لا يحب أن يتذكره، ولا يحب من يذكِّره به. علاقة العداء والتنافس هذه تقوم على عدد من الأسس، منها:

١ـ عقلية الشح والضيق والتي تقوم على أساس محدودية كل شيء وكون الطلب دائماً أكثر من العرض، والشيطان هو الذي يدعم هذه العقلية، وهذا واضح في قول الله تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

٢- الخوف من مكر القريب والبعيد والخوف من مفاجآت الأقدار، والخوف من غدر الموظفين والعمال، والخوف من تغير الظروف العامة.. الخوف من كل شيء، ولهذا فلا بد من الاستعداد، وخير استعداد لذلك هو تملك كل ما يمكن تملكه ومن كل شيء.

٣- يعتقد أصحاب هذه الصورة: أن الصراع هو العلاقة الأساسية في الوجود؛ ولاسيما في عالم الكائنات الحية، حيث لا تمر لحظة حتى يلتهم كائن حي كائناً آخر، ولا تمر لحظة حتى تحدث مئات من وقائع الظلم والعدوان، ولهذا فإن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب.

إن نتائج هذ التصور لعلاقة الإنسان بيئية وما يحيط به هي التدمير والإتلاف، وهذا ما بتنا نلاحظه اليوم على نطاق واسع، فقد كان الآباء والأجداد يفخرون بحفاظهم على الأشياء واستخدامهم لها فترات طويلة، أما اليوم فالناس يفخرون بسرعة تخلصهم من الأشياء القديمة وسرعة إحلال أشياء جديدة محلها.

صورة التعاون والمؤازرة:

تقوم هذه الصورة على أساس أننا جميعاً مخلوقات لله تعالى ولهذا فنحن وكل ما يحيط بنا من حي وجماد عبارة عن مفردات في منظومة ضخمة، والعلاقة التي تربط بيننا هي(التسخير) وحتى يستمر التسخير، فإن العلاقة التي يجب أن تسود هي علاقة الرعاية والتعاون، والاهتمام المتبادل، وإن النصوص التي تدل على أهمية الحفاظ على الموارد والدالة على الرفق بالحيوان كثيرة ومعروفة، والأكثر منها النصوص التي تحث على رحمة الإنسان بأخيه الإنسان حيث إن مصير البشر واحد مهما باعدت بينهم الجغرافيا، وفرَّقتهم السياسية.

هذه الصورة هي الصورة الإسلامية، والأساس الفلسفي الذي تقوم عليه يؤكد على شيء جوهري هو: إذا أردت أن تتمتع بشيء، فاسمح لمحيطك أن يتمتع به، لأنك لا تستطيع أن تبني جزيرة للسعادة في بحر يموج بالشقاء والحرمان والظلم.. هل تريد أن تكون حراً مصون الكرامة، إذن ساعد غيرك ممن يحيطون بك على أن يكونوا أحراراً، وإذا انتهكت حرياتهم، فدافع عنها، لأنك بذلك تدافع عن حريتك.

هل تريد أن تكون ناجحاً إذن فتقاسم النجاح مع من حولك، ولهذا فإن من المهم أن يعود شيء من نجاح الأب على أسرته وشيء من نجاح رب العمل على عماله وشيء من نجاح الدولة على شعبها... هل تريد أن تكون سعيداً؟ إذن أشرك غيرك في سعادتك من خلال الابتسام والتقدير والإحسان... هل تريد أن تكون عزيزاً؟ إذن لا تسحق من حولك، وساعدهم على أن يعيشوا أعزاء... بعض الناس يذلون من حولهم حتى يتمتعوا بالعزة، ولكنهم لن يجدوها لأن الذين سحقوهم هم الذين سيمنحونهم الاعتراف،ولا قيمة لاعترافٍ مسحوق.إن ما يسمى بـ (الكليات الخمس) يؤسس لهذا المعنى فالمسلم مطالَب بأن يحافظ على دينه وتدينه وعلى نفسه وعقله وعرضه وماله، ومطالَب كذلك بأن يساعد إخوانه المسلمين على مثل ذلك.

هذه الصورة تقوم على الآتي:

١- علاقتنا ببعضنا وبالأشياء هي فرع من علاقتنا بالله تعالى والذي يأمرنا بالتعاون والتراحم والاقتصاد في الإنفاق والحفاظ على الموارد.

٢- الثقة في أن في فضل الله تعالى ما يكفي الجميع، بشرط أن نبدع ونعمل بجدية وإخلاص.

٣- ما في الأرض يكفي جميع الناس، لكنه ليس كافياً لتلبية رغبات رجل واحد، ولهذا فلا بد من وضع حدود لرغباتنا.

٤- نحن نعرف أن التنافس موجود في هذه الحياة، وهو في الغالب متصل بانحطاط المدنية، ولهذا فإن كل تنافس ينبغي أن يفضي إلى التعاون بين المتنافسين، وما لم نعمل على ذلك ونستهدفه، فإن التنافس يتحول إلى احتيال وبغي وعدوان.

٥- القاعدة العامة في علاقتنا بمحيطنا مختصرة ومركزة في قوله ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»[1]. وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

---

(١) رواه مسلم

(٢) متفق عليه

إذا أردنا لهذه الصورة أن تسود، فإن علينا أن ندعِّمها بـالكثير من المبـادرات والـبرامج التطوعيـة والخيريـة وبـالكثير مـن الـنظم والقوانين التي تحول دون بغي الناس بعضهم على بعض.

مجتمع يعمل

إذا تأملنا في الدور الذي يقوم به المجتمع تجاه الفرد لوجدنا أنه أكبر مما نظن، وأكبر مما نعترف به في العادة، ويكفي في هذا أن المجتمع يقدِّم لنا الكثير من المعايير التي تتعلق بالمقبول وغير المقبول واللائق وغير اللائق، وقد دلت دراسات كثيرة على أن معظم الناس يحجمون عن الوقوع في الكثير من الرذائل بسبب الضغط الاجتماعي، وليس بسبب التربية الجيدة التي تلقوها في أسرهم، وفي هذا الإطار نفهم قوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إن المستقبل لا يتحدد في الحقيقة وفق المؤشرات الاقتصادية التقليدية (الناتج القومي، دخل الفرد، احتياطي الذهب....) وإنما وفق رأس المال الاجتماعي المكوَّن من الصفات الإنسانية والكفاءة والنزاهة والمبادرة... وعلى مدار التاريخ كان الإنسان يواجه صعوبات الحياة بما يمتحه من خزان الروح لديه، وبما يلقاه من التضامن الأخوي والتكافل الأهلي في مجتمعه المحلي.

المجتمع يساعد وهو في الوقت نفسه يراقب، ويزجر، ويهمِّش، وهويجري كل ذلك في هدي المسلَّمات والقيم الجوهرية التي يؤمن بها؛ ومن المؤسف أن أقول: إن عمليات المجتمع في التحفيز والرقابة آخذة في التآكل والتراجع بسبب انحلال الروابط داخل الأحياء وبسبب التضخيم المذهل والمستمر للمدن ولأسباب أخرى... وحين يبدأ مجتمع ما في فقد وظائفه الحيوية، فإن ذلك ينطلق في الحقيقة من التشوهات التي تتعرض لها ثقافته الشعبية، إذ يبدأ الخلل حين يبدأ البحث في التعريفات والتساؤل عن أسباب المنع والتحريم لكثير من الأشياء، مما يترتب عليه تراخٍ تجاه السلوكات الخاطئة.

اليوم صار ينظر بعض الناس باستخفاف إلى موضوع(الطلاق)، لأن هناك من جعل هذه المسألة خارج المعيار الاجتماعي وجعلها أشبه بالأمور الذوقية، أي ذات بعد شخصي وخاص، مع أن هناك أطفالاً قد يكونون عشرة يتم تدمير حياتهم والإساءة إليهم على نحو بالغ بسبب كلمتين ينطق بها أبوهم! وهناك اليوم من يتضايق إذا طلبت منه الدخول إلى المسجد ليؤدي الفريضة، وذلك لأن هناك من يعمل على تشكيل نظرة تجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوعاً من التطفل على الاختيار الشخصي للناس، مع أن الإسلام ينظر إلى صلاة الجماعة على أنها عبادة اجتماعية، ويقوم بعض النخب اليوم بتشكيل رؤية معاصرة لسعادة الفرد وللتقدم الاجتماعي،

ضعيفة الارتباط بالأسرة والأخلاق والالتزام بالنظم السارية، وتعتمد على الميزات الشخصية والبراعة و(الفهلوة) كما تركِّز على إنجازات السوق وحجم الصفقات التي يمكن عقدها خلال الشهر!

إذا أردت أن تعرف مستقبل البوادي، فانظر إلى واقع القرى، وإذا أردت أن تعرف مستقبل القرى، فانظر إلى واقع المدن، وإذا أردت أن تعرف مستقبل المدن، فانظر إلى واقع العواصم والمدن الكبرى، وأخشى أن أقول: إذا أردت أن تعرف الكثير عن مستقبل مجتمعاتنا فانظر إلى واقع المجتمعات الرأسمالية، فالعالم المتقدم هو الذي يصنع اليوم الثقافة الشعبية لكثير من أمم الأرض!

نحن نملك كل المقومات لجعل مجتمعاتنا تعمل، وتؤدي وظائفها بطريقة جيدة، وهذا متاح الآن، ويتطلب المسارعة إلى إقامة أكبر عدد ممكن من المؤسسات والبرامج والأنشطة الثقافية والمجتمعية التي توجه سلوك الأفراد، وتُنعش الأعراف الاجتماعية الصالحة التي أصابها الذبول، وإن عدم الاهتمام بهذا الأمر على النحو المطلوب سيجعل الأجيال القادمة تعاني من الافتقار إلى المسلَّمات كما تعاني من كثرة التساؤلات حول كل شيء؛ وهذا ما لا يرغب أحد في تخيله!

بناء المحيط الذهبي (١)

تنبع أهمية بناء المحيط الذهبي من مجموع رؤيتنا لحاجات الإنسان ورغباته وطموحاته وقدرته على التحمل، فنحن في الحقيقة مخلوقات ضعيفة وتابعة، وإن تحديد الوسط الأكثر ملاءمة لحياة مطمئنة ومثمرة يقع في طليعة اهتمامات المصلحين لعلمهم أن وعظ الناس بالصلاح والجدية وتحسين الإنتاجية يظل قاصر التأثير ما لم تكن هناك معطيات موضوعية تساعد الناس على تنفيذ ما نطلبه منهم، وأعتقد أن الخطط التنموية الجيدة تستبطن الوعي بمتطلبات المحيط الذهبي، وتسعى إليه.

كيف نبني المحيط الذهبي؟

١- من المهم دائماً ونحن ندعو الناس إلى القيام بعمل من الأعمال والالتزام بخلق من الأخلاق أن ندلهم على الوسائل التي تمكّنهم من ذلك، وهذه قضية في غاية الأهمية، لأن لدينا الكثير من الإمكانات والفرص لكن كثيراً من الناس، ولاسيما الشباب لا يعرفون شيئاً عنها، وهذا يتطلب من المثقفين وصناع الخطاب أن يكونوا عمليين أكثر مما هم عليه اليوم.

٢- استهداف تكوين طبقة وسطى، قوية وعريضة، وأفراد الطبقة الوسطى هم الذين تجاوزوا مرحلة الفقر، ولم يبلغوا الطبقة العليا من أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، وغالب أفراد هذه الطبقة يكونون من أصحاب المهن العلمية مثل الأطباء والمهندسين والمحامين وكبار الموظفين..على مدار التاريخ كانت هذه الطبقة هي التي تمنح المجتمع سماته العامة، وهي التي تخرِّج المبدعين والقادة والمؤثرين في مسيرة الحضارة. المطلوب هو أن تشكل الطبقة الوسطى(٨٠٪) من المجتمع وذلك حتى تشكل صلة وصل قوية وفاعلة بين الطبقة الدنيا والطبقة العليا وحتى تقوم بدورها في استقرار المجتمع واعتداله، وإن توسيع مساحة هذه الطبقة يتطلب العديد من الأمور، منها:

مكافحة كل أشكال الفساد المالي والإداري من غير هوادة، وذلك لأن انتشار الفساد المالي يزيد الضعفاء ضعفاً، ويمنح الأقوياء والأثرياء فرصاً إضافية لمزيد من الثراء، وهذا يؤدي بالطبع إلى تقلص الطبقة الوسطى، ويؤسفني القول: إن معظم دول العالم الإسلامي تقدِّم نموذجاً واضحاً لضعف الطبقة الوسطى، ويلعب الفساد دوراً مهماً في ذلك.

الاهتمام بالتعليم المجاني، وذلك لأن التعليم الممتاز يشكل أوسع مسار للحراك الطبقي، والواقع يشهد بهذا حيث نرى أن

كثيراً من أبناء الطبقة الوسطى ينتمون في الأساس إلى أسر فقيرة، وقد تحسنت أوضاعهم بسبب الشهادات التي نالوها، والعلم الذي حصّلوه، ومن المؤسف أن التعليم الحكومي- وهو غالباً مجاني- يشهد موجة من التراجع والانحطاط، مما يجعل المستقبل أمام أبناء الفقراء غير واضح، أما الأثرياء فإنهم يجدون دائماً مخرجاً، وقد وجدوه في المدارس الأهلية التي تقدم تعليماً جيداً، وتتقاضى من الطلاب في مقابله مبالغ طائلة، وإني لأرجو من كل المؤسسات الخيرية أن تخصص ٥ ٪ على الأقل من الأموال التي في حوزتها لتعليم أبناء الفقراء وابتعاثهم إلى جامعات جيدة.

تستطيع الحكومات من خلال ميزانياتها ومن خلال الضرائب والكثير من الإجراءات أن تدعم الطبقة الوسطى، ومن أهم ما يمكن أن تقوم به تقليص الفوارق في الأجور، إذ إن من المفروض ألا يزيد مرتب المدير العام عن عشرة أضعاف أصغر موظف لديه، وهذه الوضعية موجودة في بعض الدول التي تتمتع باستقرار وتماسك اجتماعي كبير كاليابان - مثلاً - أما في الدول العربية فإن الفارق قد يصل إلى مئة مرة، وهذا شيء مخيف، ونحن نؤمن بأهمية الحافز المادي في الإبداع، والتقدم، ولكن علينا أن لا ننسى الجانب الإنساني، فالموظف الصغير لديه أسرة، وعليه مسؤوليات، لا تختلف كثيراً عما على الموظف الكبير، وربما أكثر

لأن المتعلمين والمرفهين لا ينجبون - في العادة- الكثير من الأولاد. وتستطيع الحكومة دعم الطبقة الوسطى عن طريق الضرائب التصاعدية، وإن كان وجود الضرائب يدفع نحو الاحتيال، ويسبب العديد من المشكلات، لكن قد لا تجد الدولة أي بديل عنه في مساعيها لتوفير خدمات جيدة لأحياء الفقراء وذوي الدخل المحدود، ومما يمكن أن تفعله الحكومات أيضاً إنشاء بنوك حكومية وشعبية لتوفير قروض خيرية لأصحاب المشروعات الصغيرة وللشباب الذين يريدون إكمال تعليمهم، وقد قامت(الهند) في مرحلة من المراحل بسن قوانين تقضي بقصر التعاقد في كثير من المشروعات على المؤسسات الصغيرة بوصف ذلك جزءاً من إعادة التوازن الاقتصادي إلى المجتمع. ولا بد مع هذا من تخصيص ميزانية لدفع مرتبات شهرية للباطلين عن العمل حتى نحمي أسرهم من التصدع، ونحميهم من الانحراف السلوكي...

بناء المحيط الذهبي (٢)

إن بناء المحيط الذهبي ليس من مسؤولية الحكومات وحدها حيث ينبغي على الناس دائماً المساهمة في حركة النهضة وتحسين الأوضاع العامة، وهم في الحقيقة يستطيعون القيام بالكثير الكثير، ولعل منه الآتي:

١- الثقة والتفاؤل:

حين يكون المحيط سيّئاً أو(حديدياً)، فإن الناس يشعرون بالكثير من التشاؤم واليأس؛ لأن المعطيات السائدة توحي إليهم بذلك، ومع أنني أعتقد أن النجاح والتقدم والشعور بالتغيير نحو الأفضل هي المبعث الأساسي للشعور بالتفاؤل، إلاّ أن من المهم جداً أن يدرك الناس أن لديهم إمكانات هائلة مذخورة في عقولهم ونفوسهم للشعور بالسعادة والتفوّق، وقد ثبت - بما لا يدع مجالاً للشك- أن وفرة المعطيات المادية لا تكفي لتحقيق الطمأنينة والنجاح، كما ثبت كذلك أن قلة الإمكانات المادية لا تشكل بمفردها سدّاً منيعاً دون الشعور بالسعادة أو تحقيق النجاحات الباهرة؛ إذ يمكننا من خلال الصلة الحسنة بالله تعالى ومن خلال الإرادة الصلبة واكتساب

مهارات جديدة إلى جانب الإيثار والتعاطف والتراحم.. أن نحيا حياة جديدة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وإن من مهمات الدعاة والمثقفين إشاعة ثقافة الهناء بالقليل من الإمكانات.

٢ـ العمل الجاد:

حين تزور بلداً متخلفاً ترى كثيراً من الشباب متجمهرين في الساحات أو أمام المنازل، وهم يشكون من الفقر وتراكم الديون، وتلفّهم الحيرة والارتباك مع أنه ما من بلد - مهما كانت درجة تخلّفه- يتيح لمن يحب أن يعمل فرصة ولو صغيرة ليقوم بشيءٍ ما، وإن كثيراً من أثرياء العالم عملوا في بداية حياتهم بأعمال تافهة جداً.

المشكل أن الأسر والمدارس معاً مقصرة في بث ثقافة العمل في نفوس الصغار، مع أنه لا يكاد يُذكر الإيمان في الكتاب العزيز إلا مقروناً بالعمل. بالعمل المتابع نُدخل تحسينات مستمرة على أوضاعنا وبيئاتنا، ونكتشف أنفسنا وإمكاناتنا، كما نكتشف ممانعة الواقع وصعوبات التنفيذ، ولن يغني عن العمل أي شيء آخر.

٣- التطوع:

لا يكون المحيط ذهبياً إذا لم تكن هناك شريحة لا تقلّ عن ٣٪ تهتم بالشأن العام، وتملك القدرة على التضحية بشيء من جهدها ووقتها من أجل الارتقاء به.

الذي يظهر دائماً أن هذه الشريحة تعطي وتبذل، وتخسر، لكن الحقيقة أنها تأخذ أكثر مما تعطي، حيث إن المحتسبين من تلك الشريحة ينالون من عظيم ثواب الله ما لا يقارَن مع ما قدّموه، وهم مع هذا يشعرون برفاهية الروح وأناقة الداخل، ولا يقتصر التطوع على الإحسان إلى الآخرين، بل إن كل عمل نتجاوز فيه حدود الواجب يشكل مورداً للشعور بامتلاء الداخل، فقيام الليل والصدقة وبشاشة الوجه والدعاء للإخوان في ظهر الغيب والمبادرة بالسلام... كل هذه الأمور الجميلة تحسّن مزاج الإنسان، وتشعره بنوع من التفوّق. والحقيقة أن الإقبال الهائل الذي نشاهده اليوم على الاستهلاك والمباهاة بالمظاهر هو صدى حقيقي للفقر الروحي وخواء النفوس، وليس هناك شيء كالعمل التطوعي يستعيد أمجاد الذات وأصالة الشخصية، وهذا وحده هو الذي يخفف الطلب على المال، و المضي في سلوك السبل المظلمة من أجل الحصول على المزيد منه.

٤ـ بيئة جميلة

أوجدنا الله تعالى على هذه الأرض ووجّهنا إلى العمل على بقائها صالحة للعيش لأجيال كثيرة قادمة، ونحن جميعاً مطالبون بالمساهمة في ذلك، وحين نستجيب لما طلب منا فإننا نكون قد تعاملنا مع الأرض كما يتعامل عالم كبير مع مكتبته الخاصة، إنه ينتفع بها،

ويثريها بالجديد باستمرار، وحين يرحل عنها يتركها وهي أشد ما تكون اكتمالاً، لكن الذي يجري الآن مغاير لهذا تماماً، حيث يتم تفريغ باطن الأرض من كنوزها، وخيراتها وباستخدام تلك الكنوز يتم القضاء على التنوّع البيئي وتلويث الماء والتراب والهواء!

البيئة الجميلة هي بيئة نظيفة وخضراء ومنظمة وهادئة، وقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طيرأو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة». وهذه الصدقة قد تستمر مئات السنين، وحثَّنا على أن نستمر في عمل ما ينفع الأرض والناس إلى آخر لحظة من عمر الحياة الدنيا حيث قال ﷺ:«إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها».

المكان الجميل يوحي بالمشاعر الجميلة، ويزيد درجة التعاطف بين الناس، والمكان الفوضوي وغير النظيف يثير مشاعر الملل والسأم، نحن نهندس منازلنا، ثم تهندسنا منازلنا.

بناء المحيط الذهبي يحتاج أول ما يحتاج إلى الثقة بأن كل واحد منا قادر على تحسين محيطه، وجعله أفضل مما هو عليه الآن.

إدارة التعانف (١)

إن الله سبحانه قد فطر الإنسان على الاستئناس بأخيه الإنسان، كما فطر الخلق ورتّب شؤونهم على احتياج بعضهم لبعض، لكن من الثابت أيضاً أن اجتماع الناس يولّد العديد من التوترات والصدامات؛ وذلك بسبب اختلاف أمزجتهم وأفهامهم وأهوائهم ومصالحهم... ومن وجه آخر فإن من الثابت أيضاً أن التقدم الحضاري الذي يشهده العالم اليوم لم يهذّب الطباع على النحو المأمول، ولم يقرّب المسافات العقلية والروحية والنفسية الفاصلة بين الناس؛ حتى إن أحد الباحثين يرى أن التقدم الحضاري هو تقدم في الطلاء والشكل، أما في الأعماق فإن هناك وحشاً كاسراً يتربص وينتظر للفتك والافتراس، والحقيقة أن لدينا شواهد لا تحصى وفي كل مكان من العالم على صحة ذلك! ويبدو لي أن الناس على مستوى العامة كانوا يدركون هذه الحقيقة أفضل من إدراك بعض الخاصة لها؛ حيث إننا نجد أن الهمّ الذي يسيطر على(الثقافة الشعبية) ليس الإنجاز ولا الرؤية الموضوعية أو وضع الأمور في نصابها... وإنما تحقيق أعلى درجة من التضامن الأهلي والتلاحم الأخوي؛ وذلك بغية سد الطرق والأبواب في وجه الصدام والتعانف والعدوان.

انطلاقاً من كل ما سبق فإنّ مصطلح(إدارة العنف) يعني الاعتراف بوجوده كامناً وظاهراً، كما يعني نوعاً من الاعتراف بالعجز عن محوه والقضاء عليه؛ حيث لا سبيل للتعامل معه سوى إدارته، والسعي إلى التخفيف منه قدر الإمكان وإبقائه تحت السيطرة. وإذا أردنا أن نستقصي التشريعات والآداب والإجراءات التي أقرها الإسلام وحفَّز عليها من أجل إدارة العنف فإننا سنجد أمامنا الكثير الكثير مما يمكن أن نتحدث عنه؛ فلا بأس إذن أن أشير على نحو خاطف إلى ما هو مهم منه، وذلك عبر النقاط الآتية:

امتنَّ الله تعالى على قريش بما حباها به من الأمن بسبب مجاورتها لبيته العتيق؛ فقال سبحانه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١-٤]. والأمن يوم القيامة وفي الجنة أحد موعودات الله تعالى لعباده المؤمنين: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

إن شرح قيمة الأمن والاستقرار والشعور بالهدوء والسكينة يفتح وعي الناس عليها ويحفِّزهم على الدفاع عنها، ويحمِّلهم مسؤولية رعايتها من خلال الاستقامة على أمر الله تعالى والتأدب بآداب الشريعة الغراء.

مدح النبيﷺ الرفقَ؛ والذي يعني: اللطف وسهولة الخلق ويسر التعامل؛ فقالﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه». واللطيف اسم من أسماء الله تعالى والرفق من محابِّه؛ قالﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويرضاه، ويعين عليه ما لا يعين على العنف». إن كل الأشياء يمكن أن تؤدَّى بطريقة خشنة وعسرة وجافة، ويمكن أن تؤدَّى بطريقة لينة وسهلة وجميلة، وإن على المسلم أن يجنح إلى الثانية؛ لأنها هي التي ترضي الله سبحانه، وهي التي تدل على سُموِّ الخلق ورُقي النفس، وقد دعا لأصحاب الأخلاق والمعاملات والمواقف السهلة والسمحة بقولهﷺ: «رحم الله عبداً؛ سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى».

إن من المتوقع دائماً أن يقع الناس في الأخطاء والتجاوزات من كل الأشكال والأنواع، وهذا يحفِّزهم على مقابلة الإساءة بالإساءة والعدوان بالعدوان..؛ لكن الله يريد من عباده أن يكسروا هذه المعادلة الرديئة حتى لا يدخلوا في دوائر العنف التي قد لا يعرفون كيف يخرجون منها، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا

لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

إن الزحام يثير حفائظ الناس، ويُزعجهم، ويُظهر ما لديهم من سوء كامن؛ وهذا بسبب أن كل واحد مِنّا يرسم فضاءً وهمياً لنفسه على مستوى النظر وعلى مستوى اللمس؛ فإذا اعتدى أحد على ذلك الفضاء فإنه يشعر بالخطر، ولهذا فإنه ينزعج ويتأهب للدفع؛ الذي يصل إلى القتل عند الحاجة. ويبدو أن رسم الفضاء الخاص والحيِّز الشخصي ليس خاصاً بالإنسان، بل إن الحيوان أو بعضه يفعل ذلك؛ فقد دلّت بعض الدراسات على أن بعض أنواع الأسماك تطلق روائح كريهة من أجل طرد الأسماك التي تدخل على ما تعده مجالاً حيوياً لها! ومن هذا الأفق نفقه مغزى قول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١]. والله المستعان.

إدارة التعانف (٢)

تحدثت قبل قليل عن بعض الآداب والتشريعات والإجراءات التي أقرها الإسلام وحث عليها، من أجل تخفيض وتيرة(التعانف) وإدارته والسيطرة عليه داخل المجتمع الإسلامي، وسأذكر اليوم المزيد من ذلك بغية اكتمال الصورة:

بما أن الذي يسبق كل تعانف بدني هو الكلام الذي يحمل طابع التحدي، أو الإساءة، أو السبّ والشتم، أوالاستهزاء.. فإن الله حرّم ذلك على المؤمنين وشنّع على فاعله؛ وذلك بغية سد الذرائع وقطع الأسباب التي تحدث الجفاء وتُثير روح الانتقام، ولك أن تتأمل النصوص الكريمة الآتية:

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]. وقال ﷺ: « ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا البذيء »(١)، وقال أيضاً: « ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه،

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وما كان الحياء في شيء قط إلا زانه »[1] وقد تجاوز النهي ما يثير التعانف من الأذى المباشر إلى أمور تتم عادة في غيبة الناس أو تتم بطريقة سرية، أو تكون عبارة عن شيء يتردد في الصدور على نحو ما نجده في التجسس والغيبة والنميمة وسوء الظن..، إن كل ذلك يفسد العلاقات بين الناس ويكدّر قلوبهم، ويدفعهم إلى أن يكونوا في وضعية عنيفة وعدوانية، والنصوص في كل هذا معروفة مشهورة.

يلاحظ أن التعاليم الإسلامية تحذر من أن ينزلق المسلم إلى حالة يمكنه فيها إيقاع الأذى البدني بأخيه المسلم، ونجد مثل هذا التحذير في قوله ﷺ: « لا يُشرْ أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار »[2]. وفي رواية لمسلم: « من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه ».

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: « نهى رسول الله ﷺ أن يُتعاطى السيف مسلولاً »[3]. ويدخل في إطار الاحتراز من إيقاع الأذى البدني بالآخرين ما ورد من أحاديث وآثار في التعامل مع الغضب،

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) رواه أبو داود والترمذي.

حيث إن على الغاضب أن يخفف من غضبه من خلال الوضوء، أو الاغتسال، ومن خلال السكوت إذا كان يتحدث وهو غاضب، ومن خلال الوقوف إن كان ماشياً، والجلوس إن كان واقفاً.

إن كثيراً من التعانف الذي يقع بين الناس يعود إلى التعصب للرأي والمذهب والاتجاه، وإذا استعرضنا التاريخ الإسلامي فإننا سنقف على حقيقة محزنة، هي أن الناس أراقوا الكثير من الدماء انطلاقاً من تكفير أو تسفيه أو تفسيق خصومهم ومخالفيهم من أهل القبلة، ولو أنهم وقفوا الموقف الشرعي كما يصوّره الفقيه لكفّوا عن كثير مما فعلوه. وقد قام بعض أئمة الهدى بكسر حدة التعصب من خلال محاولة عرض كل أجزاء الصورة وبيان كل جوانب القضية

أو الحقيقة، على نحو ما نجده في سيرة سفيان الثوري رحمه الله حيث إن من المعروف تاريخياً أن(البصرة) كانت تتعصب على المستوى السياسي لعثمان رضي الله عنه أما(الكوفة) فإنها كانت تتعصب لعلي رضي الله عنه وقد كان سفيان يقول: « إذا ذهبتُ إلى البصرة حدَّثت الناس بمحاسن علي، وإذا ذهبتُ إلى الكوفة حدَّثت الناس بمحاسن عثمان »!

إن الخلاف في أمور ظنية وفرعية واجتهادية هو أمر طبيعي وواقع في كل العصور، والذي يتعصب لرأي اجتهادي جاهلٌ يحتاج إلى تعليم، أما إذا كان بعض المسلمين على الحق الواضح القطعي

الذي لا لبس فيه فإن هذا البعض يشكّل الفئة التي ينبغي أن يـؤوب إليها مَنْ خالفها؛ لأن مخالفتها ضلالة، وقد ورد في هذا السياق قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « الجماعة أن تكون على الحق ولـو كنت وحدك » وقد صدق، فإنه إذا كان أهل حي أو قرية معرضين

جميعاً عن إقامة الصلاة - مثلاً - إلا واحـداً مـنهم، فـإن ذلـك الواحد هو الجماعة وأهل القرية أو الحي مفارقون للجماعة، وما ذاك إلا لأن ذلك الرجل على الحق القطعي الصريح.

الظلم وهضم الحقوق والعدوان على الناس مـن أكثـر مـا يثـير التعانف بين الناس. إن كثيراً من الناس مسـتعد لارتكـاب جريمـة قتل، وخيانة وطن، وخذلان أهل.. إذا شعر أنه وقع عليه ظلم فادح وعدوان صـارخ، والقاعـدة في هـذا أنـه لا يبقـى مـع الظلـم شيء مقدَّس؛ ومن هنا جاءت النصوص الكثيرة التي تأمر بإقامة موازين العدل، وتنهى عن الظلم وتحذِّر من عواقبه، وقد قال أحد المفكرين: صلاح الأمم بصلاح جهتين أو قطاعين: التعليم والقضاء، وفسادها بفسادهما. ونحن نلاحظ أن كثيراً من البلدان الإسلامية عطّلت

إقامة الحدود، فأدى ذلك إلى اقتتال الناس وكثرة حوادث القتل بدافع الثأر، وما ذاك إلا لأن القضاء هنـاك لا يحقـق العدالـة التـي يريدها الناس، والتي شرعها الله تعالى لهم.

إدارة التعانف (٣)

من طبيعة التدين تنمية حساسية الناس نحو الخروج على القيم والمبادئ السامية؛ ولهذا فإن المسلم حين يقع في معصية، أو يقع منه عدوان على أحد من الناس، فإنه يشعر بالضعف وشيء من الندم وإن لم يُحدث توبة. والحقيقة أن الناس، على نحو عام، مفطورون على السعي إلى تحقيق مصالحهم مع أقل قدر من الخروج على مبادئهم، ولا نستثني أحداً، حتى اللصوص؛ فإنهم حين يدخلون بيتاً بقصد سرقة مال أو حلي أو متاع، فإنهم إذا حصلوا على ذلك لم يعمدوا إلى القتل؛ لأنه يشكِّل في نظرهم خروجاً على المبدأ من دون أي مسوغ، وفي المقابل يكون كثير من الناس مستعدين لارتكاب الجرائم الكبرى حين يجدون أنفسهم مهددين بخطر كبير، أو يوضعون في ظروف معيشية قاسية جداً، وفي هذا السياق فإن جزءاً مهماً من إدارة العنف يكمن في العمل الدؤوب من قبل الدولة ومن قبل الناس على توفير الحد الأدنى من الكفاية المعيشية وشيء من الرفاهية، وذلك حتى لا تتكوّن أو تظهر أمراض الاستئساد والخوف والخنوع من أجل الدفاع عن الوجود؛ حيث إن الإنسان

حين يجوع يتحول إلى وحش كاسر، بل أشد؛ لأن الوحوش إذا شبعت كفّت عن الافتراس، أما الإنسان فإن الجوع يعلمه الافتراس الذي لا ينساه ولو تحققت له الكفاية. وهناك من الناس مَنْ إذا جاع تحول إلى ذليل يقدِّم كل التنازلات في سبيل الحصول على ما يقيم الأود، وفي الحالتين يفقد الناس ما يجعل منهم بشراً أسوياء!

وقد صحّ عنهﷺ أنه قال: « اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقِلَّة والذِّلة، وأعوذ بك من أن أَظْلِم أو أُظْلَم »(١)، وصح عنهﷺ أنه قال: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع؛ فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة؛ فإنها بئست البطانة »(٢)، وصح عنهﷺ أنه قال: « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»(٣).

شيء آخر يثير التعانف، هو الازدحام على المال من أجل تحقيق الذات، وأقول ابتداء: إن عصر الأشياء المجانية قد انتهى حتى الماء والهواء النقيان سوف يجد الناس أنفسهم مضطرين إلى شرائهما، أضف إلى هذا أن وسائل الدعاية والإعلان تصور للناس أن السعادة شيء يمكن الحصول عليه من خلال المال، بل تصور لهم أنه لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال المال، وهذا دفع الشباب

---

(١) رواه أبو داود وغيره.

(٢) حديث حسن رواه النسائي وغيره.

(٣) رواه مسلم.

- على نحو أخص - إلى محاولة الحصول على أكبر قدر من المال بأي طريق كان، وهذا شيء يدعو إلى الأسى!

علينا أن لا ننسى أن الخوف من المستقبل، وما يمكن أن تأتي به الليالي والأيام، ظل على مدار التاريخ يحرِّض الناس على الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من المال، وقد قالﷺ: «لو كان لابن آدم وادٍ من مالٍ لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا الترابُ، ويتوب الله على من تاب»[1].

إن المال يظل يثير التعانف؛ لأن المطلوب منه سيظل أكبر من المعروض، ويخفف من الآثار السلبية لهذه الوضعية القيودُ والآداب والتوجيهات الشرعية في اكتساب المال وإنفاقه، لكنَّ هناك شيئاً آخر يستحق الاهتمام؛ وهو أن المال ليس وسيلة لقضاء الحاجات فحسب، ولكنه وسيلة لتحقيق الذات وشراء الوجاهة، ويشتد الطلب على المال من أجل تحقيق ذلك حين يكون المجتمع فقيراً في الأنشطة الدعوية والأدبية والاجتماعية.

إن الإنسان مفطور على السعي إلى الشعور بالامتلاء والغنى الداخلي، والمصدر الأساسي لذلك هو إحساسُ المرء بالإنجاز والعطاءُ غير المشروط والتضحيةُ من أجل الآخرين.. ويؤسفني القول: إن المجتمعات الإسلامية باتت من أفقر مجتمعات العالم في

---

(١) متفق عليه.

الأنشطة الخيرية والأدبية والاجتماعية مع أننا نملك أعداداً كبيرة جداً من الشباب الراغب في العمل من أجل الصالح العام، لكن انشغال الكبار بجمع الثروة إلى آخر لحظة في حياتهم حرم أولئك الشباب ممن يوجههم ويقودهم للقيام بأنشطة ومشروعات تعود بالنفع على العباد والبلاد!

في كثير من الدول يقوم مَنْ يمكن أن نسميهم بـ(الشخصيات العامة) ومن حققوا شهرة اجتماعية واسعة.. يقوم هؤلاء بتأسيس الكثير من الأعمال الخيرية بعد إحالتهم للتقاعد، وتجد أنهم يبدؤون دورة جديدة في الحياة، مستثمرين شهرتهم ووجاهتهم في جمع الأموال لصالح مشروعاتهم الخيرية ذات النفع العام..؛ فهل نستطيع أن نتعلم منهم درساً في هذا الباب؟

إدارة التعانف (٤)

لا يخفى ذلك التقدم الهائل الذي حدث على صعيد العلوم الطبيعية؛ حيث تَوَفَّر للناس قدر هائل من المعارف والمعلومات الموثوقة، التي يمكن فعلاً اتخاذ الكثير من القرارات المعتمدة على معطياتها ومدلولاتها، لكن ذلك لم يحدث على صعيد علوم الإنسان؛ وذلك لأن كل ما يتصل بالإنسان يتصف بالتعقيد من جهة؛ ولأن المردود الاقتصادي المتوقع من وراء البحث العلمي في شؤون الإنسان ضئيل جداً من جهة أخرى.

الدراسات المتوفرة على قلتها النسبية تشير إلى أن إثارة حفيظة الإنسان، وحمله على أن يسلك مسلك التعانف ليس بالأمر الصعب، أي أن البنية

العصبية والروحية للإنسان تُبدي هشاشة ظاهرة في الكثير من المواقف؛ حيث يتعكر المزاج، ويستعد المرء للتوثب والمصاولة في أحيان كثيرة لأتفه الأسباب.

حين ترتفع درجات الحرارة في فصل الصيف عن الحد المألوف ترتفع نسبة حوادث السيارات، وتكثر المشاجرات(الخفيفة) بين

السائقين، وحين يزدحم المكان بساكنيه، وتزيد نسبة الاحتكاك بينهم عن الحد الطبيعي، فإنهم يُظهرون الكثير من سوء الأخلاق. المكان القذر والفوضوي يجعل ساكنيه يتبادلون فيما بينهم مشاعر سلبية وسيئة... يحدث كل هذا خارج دائرة وعينا؛ بسبب تخلف المعرفة الإنسانية بشؤون البشر، وهذا أدى إلى أننا لا نعالج الأسباب التي تؤدي إلى التعانف، كما أدى إلى عدم تقديرنا التقدير الصحيح للعلاجات التي قررها الدين الحنيف لأشكال التوتر، وكانت النتيجة استمرار العدوان واستمرار العنف، بل إن العنف

تصاعده في كثير من الأحيان. وقد تحدثت في المقالات الثلاث السابقة عن بعض الأسباب وبعض العلاجات للظاهرة التي نحن في صددها، وسأتحدث في هذاالمقال عن المزيد من هذا وذاك عبر المفردات الآتية:

١- إن كثيراً من التعانف ينشأ بسبب إعجاب المرء برأيه ورأي حزبه وجماعته وقبيلته؛ حيث إن من طبيعة الناس أن يذعنوا للحق الواضح الصريح ولو إذعاناً ظاهرياً أو شكلياً، لكنهم يرفضون ذلك في الأمور المختلف فيها، وهذا هوالصحيح؛ فإذا كنتُ أصدر عن رؤية اجتهادية وتصدر أنت عن مثلها؛ فلماذا تفرض عليَّ رأيك وتحرمني من حق الاجتهاد؟ وإذا كنتَ تفعل ذلك؛ فلماذا لا أفعل أنا مثله وأشيد برأيي؟

وهكذا يتحول الاجتهاد من نعمة إلى نقمة، وإلى معترك بين الأقران!

إن الله سبحانه نهى الناس عن أن يمدحوا أنفسهم ويزكوها؛ لما في ذلك من الإعجاب بها وتمهيد السبيل لاتباع أهوائها، حيث يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[النساء: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. تزكية النفس تشمل مديح الخُلُق والسلوك والرأي والاجتهاد والأحساب والأنساب؛ وقد أخرج مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وقال: « لا تزكوا أنفسكم! إن الله أعلم بأهل البر منكم » فقالوا: بِمَ نسميها؟ قال: «سموها زينب». إنه يريد ألا يتخذ الناس من الأسماء باباً لمديح الذات، فيفتحوا على أنفسهم أبواباً للملاحاة والتلاوم كلما وجدوا فرقاً بين الاسم وسلوك صاحبه.

ويندرج في إطار الإعجاب بالذات واتباع أهوائها ما يساعد على ذلك من مديح الناس بعضهم لبعض، وقد ورد أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك! قطعتَ عنق صاحبك (مراراً)؛ إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً

والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك »[1]. ولم ينتفع كثير من المسلمين مع الأسف بهذا التوجيه الرشيد؛ فترى كثيراً من القصائد الشعرية مشحوناً بالإطراء والتهويل المجافي للحقيقة، وصار فن المديح أحد الفنون الأثيرة لدى عدد كبير من الشعراء، مع أن آداب العديد من الأمم والشعوب الغربية تكاد تخلو من المديح على نحو تام!

٢- إن مما يساعد على تخفيف التوتر وسد بعض نوافذ التعانف التريثَ في إصدار الأحكام، والتثبتَ والتبين قبل اتخاذ مواقف محددة، وهذه قضية مهمة؛ فقد تقوم حروب باردة وساخنة بين قبائل وطوائف، وبين هيئات وأشخاص بناءً على ما يسمعه الناس من كلام الوشاة والنمامين، وإن تاريخنا وواقعنا حافلان بالقصص المحزنة والأحداث الأليمة التي وقعت بسبب الاستعجال في تنظيم ردود الأفعال على ما يقال هنا وهناك، والحقيقة أن كثيراً من الأخطاء الفادحة يقع بسبب الانطلاق من الظنون والأوهام وجذْبِ المعطيات العلمية الموثوقة؛ وما أجمل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦]. وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٞ﴾[الحجرات: ١٢].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده.

إدارة التعانف (٥)

كان الإنسان على مدار التاريخ حائراً في إدارة القوة التي في حوزته، ويمكن القول: إن هناك فجوة مستمرة بين القوة التي نحصل عليها وبين الحكمة والكياسة التي نحتاج إليها في استخدام تلك القوة والتعامل معها، ولهذا فإن الناس الذين لا يرون إلا الجانب الإيجابي للنفوذ هم أكثر من يتأذون بنفوذهم، فالقوة خوّانة؛ وخيانتها في خذلان الذين يستخدمونها عن غير تدبُّرٍ كافٍ لعواقب الأمور وتداعيات الأحداث وردود الأفعال عليها، ومن هنا ندرك أهمية القيود التي تضعها الأحكام والأدبيات الإسلامية على حركة الأقوياء والمتنفذين، وتلك القيود تهدف في الحقيقة إلى حمايتهم من أنفسهم ووقايتهم من الشرور الناشئة من امتلاك القوة المطلقة. ولعلّي أشرح هذه الفكرة عبر المفردات الآتية:

فطِن الإنسان منذ آماد بعيدة إلى الدور المهم الذي يمكن أن تؤديه (التراتبية الاجتماعية) في تقييد القوة ومن ثمَّ التخفيف من درجة التعانف الذي يمكن أن يحتاح المجتمع في أي

وقت من الأوقات، وأعني بـ(التراتيبية الاجتماعية) تلك الأعراف الاجتماعية التي تلتقي على إيجاد تصنيفات معينة، تتطلب نوعاً من الرفق واللطف والخضوع الموجَّه من شخص إلى شخص آخر، بعيداً عن النظر إلى اعتبارات القوة والضعف والفقر والغنى والدناءة والشرف، وقد جاءت الشرائع السماوية بتأسيس بعض تلك الأعراف والتوكيد على بعضها الآخر، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

أ- احترام الوالدين وتقديرهما، والإقرار بفضلهما ومصاحبتهما بالمعروف ولو كانا كافرَيْن. وإنّ على الأبناء مهما بلغوا من الجاه والمكانة، ومهما ملكوا من النفوذ والقوة أن يُظهروا الضعف أمام الآباء والأمهات، وأن يكونوا في غاية التواضع، على ما نجده في قوله جل وعلا: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾[الإسراء: ٢٤].

والحقيقة أن الخضوع للوالدين يغرس في ذهنية الأبناء وفي نفوسهم معنى التجرد من الإحساس بالقوة من أجل شيء نبيل لا ينتمي إلى حقل التمكن المادي والمعنوي، وفي هذا تأثير خفيٌّ في مسألة الانضباط الذاتي.

ب- احترام بعض الأشخاص وإجلالهم لا لشيء سوى أنهم من كبار السن، والعطف على بعض الأشخاص لا لشيء سوى أنهم

من صغار السن، وفي بعض الأحيان توجِّهُنا الشريعة الغراء إلى احترام أناس لفضلهم وأخلاقهم وعلمهم، أي لأسباب غير مادية، ولا تتصل بقوة المال أو الجاه والنفوذ، ونجدُ هذا وذاك في قوله ﷺ: «إنَّ من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم، وحاملَ القرآن؛ غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرامَ ذي السلطان بالقسط»(١) وقوله ﷺ: «ليس منّا مَنْ لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا»(٢) وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «ليس منا مَنْ لم يُجِلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالِمنا قدرَه»(٣).

جـ- لدينا نصوص تشجع الناس على السلوك الحسن وعلى الرفق بالناس والإحسان إليهم، ومن ذلك الأهميةُ البالغة التي تمنحها النصوص لشهادة الناس بعضهم على بعض؛ حيث إنّ على كل مسلم مهما كان شأنه، ومهما كانت منزلته أنْ يتأكد من حُسْنِ الانطباعات التي يتركها في نفوس أهله وجيرانه وكل من يعرفه؛ لأن لشهادتهم فيه قيمة كبرى، وفي هذا يقول ﷺ: «إذا سمعتَ جيرانك يقولون: أحسنتَ، فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون: أسأت، فقد أسأت»(٤).

---

(١) حديث حسن أخرجه أبو داود.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد.

(٣) حديث حسن رواه أحمد.

(٤) حديث صحيح رواه أحمد وغيره.

وروى البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «مَرّوا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: وجبت! ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: وجبت! فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟! قال: هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار؛ أنتم شهداء الله في الأرض».

إن من اللافت أنّ بعض الدول الغربية اليومَ تُولِي لمسألة شهادة الجيران بعضهم على بعض أهميةً بالغة؛ فإذا اشتكت زوجة زوجها، أو اشتكى ولد أباه، فإنّ الشرطة تأتي وتسأل الجيران عن أخلاق الشخص المشكوّ، فإذا قالوا: إنه جيّد، وقفوا من الشاكي وشكواه موقف الحَذِرِ المدقّق، وإذا قالوا: إنه شخص سيِّئ، كان ذلك أدعى إلى قبول الشكوى!

إنّ من الحقائق الثابتة أنّ امتلاك القوة يدفع بصاحبها إلى البغي والطغيان والاعتداء، وهذا واضح في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]. ومن هنا، فإن على الحكومات والمؤسسات وكل الجهات ذات النفوذ أنْ تضبط الحصول على المال والمناصب وكل أدوات السلطة، فلا يتم إلا بطرق مشروعة وواضحة، كما أنَّ عليها أنْ تحُول دون استخدام القوة بطريقة عدوانية وهمجية، وإلا تحوّل المجتمع إلى طبقتين: طبقة تعتدي وتبسط سيطرتها، وطبقة مغلوبة على أمرها، وهذا سيؤدي إلى الكثير من الصِدام والتوتر.

إدارة التعانف (٦)

من الأمور الجوهرية في إدارة التعانف إدراكُ مصدر تكوّن العدوانية لدى بعض الناس، ومصدر تكوّن التنازل والتوافق والمسالمة والدفع بالتي هي أحسن لدى بعضٍ آخر منهم؛ ومع أن كسر القواعد في مثل هذه الأمور دائماً وارد إلا أنّ من الواضح أنّ الأشخاص المتوحشين ينشؤون عادة في بيئات متوحشة، حيث يتعلمون فيها أن الخشونة في التعامل والرد بالتي هي أسوأ وكيْلَ الصاع صاعين من علامات الرجولة والتفوق على الأقران! ومن الملاحظ كذلك أنّ مَن يمكن أنْ نصفهم بأنهم أشخاص لطيفون وقريبون إلى القلب، كما أنهم يمتلكون قدراً كبيراً من الرِقَّة والشفافية، هم أشخاص نشؤوا في بيئات تقدِّر هذه المعاني، وتغرسها في نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم.

لا شك في أن هدوء الأعصاب وحِدَّة المزاج من الأمور التي يرثها الأطفال عن آبائهم وأجدادهم، لكننا هنا لا نتحدث عن هذا، وإنما نتحدث عن مفهوم الناس للأسلوب اللائق في تعاملهم مع بعضهم، وعن الأسلوب الذي يستخدمونه في حل النزاعات التي

تنشب بينهم، كما أننا نتحدث عن نظرة الناس لما يعدونه شيئاً لا يغتفر في كل ذلك. وإذا وصلنا إلى هذه النقطة من البحث فلا بد أن نشير إلى دور الأسرة والمدرسة في تنشئة الأبناء على التفاهم والمساهلة في التعامل، ودورهما في تنشئتهم على العدوانية والتعانف والخشونة، والحقيقة أن دور المدرسة مكمل لدور الأسرة، كما أن الأسس التي تعملان عليها واحدة. ولعلّي أشير في هذا السياق إلى الأمرين الآتيين:

١ - حتى يتعامل الطفل مع الناس بلطف وأريحية وتفهُّم، فإنه يحتاج إلى بيئة مريحة يشعر فيها بشيئين جوهريين، هما: الأمان والبهجة، إن هذا الشعور يولّد لدى الطفل المشاعر الإيجابية نحو الحياة والناس بالإضافة إلى مشاعر الامتنان لأولئك الذين وفّروا له فرصة الشعور بالهناء، كماأنه يستخرج منه كل المشاعر النبيلة الكامنة في داخله، وهناك دراسات كثيرة تثبت ما نقوله.

إن على الأم أن تجعل من بيتها بيئة جاذبة لأبنائها من خلال ما يتوفر فيه من نظافة وتنظيم وهدوء ولطف واحترام متبادل ومحاولة للتفاهم والتفهم، وعلى المدارس أن تفعل نحواً من ذلك، وفي هذا الإطار لا بد من أن أشير إلى ما هو موجود لدى بعض الأسر المسلمة من هرج ومرج وضوضاء ونزاع مستمر، وما هو موجود لديها من عدوان الأزواج على الزوجات، والصبيان على البنات،والكبار على الصغار. إن شعور الأبناء بالقهر والظلم والتسلط يولّد لديهم روح

الانتقام، ويسهِّل في نظرهم الإعتداء على الآخرين، ولِمَ لا وقد رأى أباه وأخاه الكبير يفعلان ذلك مع ادعائهما التدين والاستقامة؟!

أما المدارس فإن عليها الانتباه إلى مشاعر العنصرية والطبقية التي قد يحملها بعض الطلاب ضد بعضهم الآخر بسبب الانتماء العرقي أو القبلي أو بسبب وجاهة الأب، أو الظروف المادية الممتازة.

إن الاضطهاد الذي يمكن أن يشعر به الطالب لأي سبب من الأسباب يجعله يفكر في التقليد، أي: يحفِّزه على تعلُّم أساليب جديدة في اضطهاد غيره، كما يجعله يشعر بالفجوة بين المبادئ والقيم العظيمة التي يسمعها داخل الفصل الدراسي وبين الممارسات العملية السيئة التي يجدها أثناء احتكاكه بأساتذته وزملائه.

المدارس مطالبة بتنمية فضيلة الاهتمام بالآخرين لدى طلابها والتعامل معهم باحترام بقطع النظر عن أي اعتبارات مادية أو اجتماعية، ومما يذكر في هذا السياق أن أحد الأساتذة في إحدى المدارس الأوروبية وجَّه لطلابه سؤالاً في الامتحان عن اسم الرجل الذي يقوم بكنس المدرسة والمحافظة على نظافتها، ووضع بضع درجات للإجابة عنه؛ لأن ذلك الرجل يستحق من منسوبي المدرسة الاهتمام والتعرف عليه والتحدث معه! وقد حُرِم الطلابُ الذين لم يعرفوا فعلاً اسم الرجل من درجات ذلك السؤال، وقد مثّل ذلك لهم درساً بليغاً يصعب نسيانه!

٢- في استطاعتنا القول: إن الإنسان يمكن أن يعامِل مَنْ حوله بعنف، وأن يلجأ إلى استخدام القوة في حل المشكلات حين يشعر بالضعف، ويشعر أنه مضغوط أو مظلوم أو مهمل أو مهمّش.. ولهذا فإن من المهم أن تنتبه الأسر والمدارس إلى توفير الآتي:

التشجيع على القيام بالأعمال الجيدة، والثناء على ما تم إنجازه ولو كان قليل الأهمية.

إتاحة الفرصة للصغار في المشاركة في اتخاذ بعض القرارات.

احترام مشاعرهم وإتاحة الفرصة لهم للتعبير عنها.

وجود شيء من الدعابة والمرح في الأسرة والمدرسة.

تعليم الأبناء والطلاب أهمية أن يضغطوا على مشاعرهم في بعض الأحيان حتى لا يؤذوا الآخرين.

القيام بتنمية قدراتهم على التكيف وعلى الحوار والتفاوض.

تنبيههم باستمرار إلى الكلمات غير اللائقة في وصف الأشياء ومخاطبة الآخرين، وتوفير الكلمات والتعابير الملائمة والجميلة وتدريبهم عليها.

نحن نعيش في زمان يبسط الله تعالى فيه للناس في القوة والتمكن، وفي داخل هذا البسط إمكانات كبيرة لممارسة العدوان وسلوك سبيل العنف والقهر؛ ولا بد من الانتباه لهذا الابتلاء والعمل على النجاح فيه.

إدارة التعانف (٧)

يَقْدَم الواحد منا إلى هذه الحياة وهو لا يعرف عنها أيَّ شيء، وسوف يخرج منها وهو لا يعرف الكثير من الأشياء، ورحلته بين الولادة والموت زاخرة بأنشطة مكافحة العماء و(اللاتكوّن)، إنه كمن امتهن فتح الصناديق المغلقة بشوق شديد بغيةَ التعرُّف على أسرارها والكنوز التي في داخلها.

إن الله فطر الإنسان على الخوف من الغموض والالتباس واختلاط الأمور، ولهذا فإنه يرغب دائماً في معرفة موطئ قدمه، لكنه لا يحصل دائماً على ما يريد.

إن الإنسان تعلَّم من التاريخ، وتعلَّم من خبرته الشخصية أن كثيراً من العدوان والبغي والشقاق والنزاع يقع تحت جنح الظلام حيث الافتقار إلى الرؤية الواضحة، ولهذا فإنَّ مساعينا لإدارة التعانف والسيطرة عليه لن تكتمل من غير جعل الوضوح في كل شيء جزءاً من تقاليدنا الثقافية وجزءاً من معاملاتنا وعقودنا، ونحن نجد في هذا الإطار أن أطول آية في كتاب الله

تعالى تحدَّثت عن توثيق الديون والإشهاد عليها، و ذلك حفظاً للحقوق، ومنعاً للجهالة التي تُفضي إلى الصدام والنزاع.

وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن:

١- على مدار التاريخ كان الإنسان في كل مكان من الأرض يعاني من الغموض الذي يسبِّبه قصور النظم اللغوية، حيث إن اللغة ليست أداة للتواصل فحسب، ولكنها قبل ذلك أداة للتفكير والفهم والتصور، فنحن حين نفكِّر نفكِّر عبر جُمل، ونكون وقت التفكير كمن يلقي درساً على نفسه، لكن المشكل الأكبر هو أن كل اللغات تعاني من نوع من العجز عند التعبير عن الصفات والكيوف والتعبير عن التدرج الموجود داخل المعنى الواحد والظاهرة الواحدة، إننا فعلاً لا نعرف كيف نعبِّر عن الفروقات الموجودة بين القبيح والقبيح جداً والقبيح جداً جداً، كما أننا لا نعرف كيف نعبِّر عن الفروقات بين الجميل والجميل جداً والبارع في جماله، ولا نعرف مدى وقع هذه الكلمات في نفوس السامعين وهم أنفسهم لا يعرفون كيف يعبِّرون عن ذلك، وهذا شيء يجعلنا ونحن نتحدث عن الشيء الواحد نبدو وكأننا نتحدث عن أشياء مختلفة، وإذا تأمَّلنا في النزاعات القائمة في البيوت وأماكن العمل فسنجد أن قدراً لا بأس به منها ناشئ من مشكلة قصور اللغة ونظم الفهم والتأويل التي يستخدمها الناس. قد تقولون:

ما الحل لهذه المعضلة؟

الجواب هو: أنه ليس هناك حلٌّ جذري ونهائي، لكن يمكن أن نتخلَّص من بعض الغموض في التعبير والفهم من خلال تحويل دلالات الكلمات من دلالا تكيفية إلى دلالات كمية، كما فعلنا في توضيح مدى صواب الطلاب في اختباراتهم، وذلك حين قلنا: إن (٧٠) تعني (جيد)، وإن (٨٠) تعني (جيد جداً)، وإن (٩٠) تعني (ممتاز) وهكذا.. ويجب إلى جانب هذا أن نصرف جزءاً من وقتنا في شرح التعريفات والمصطلحات وتوفير فهم مشترك لكل ما نريد التحدث فيه والنقاش حوله، فإذا أردنا أن نعرف هل فلان من الناس (ملتزم) وإلى أي درجة هو كذلك؛ فإنَّ علينا أولاً أن نعرِّف الالتزام وما يشكل خروجاً عليه، كما هو معروف عند المناطقة حين قالوا: (الحكمُ على الشيء فرعٌ عن تصوُّره).

٢- ينشأ الكثير من التوتر والظلم والتعانف بسبب الغموض في توصيف الحقوق والواجبات والمسؤوليات والصلاحيات، ومن العجيب أنك تدخل على بعض المؤسسات فترى فيضاً من الناس الذين يربك بعضهم بعضاً ثم لا ترى أيَّ إنجاز جيد، بل ترى الكثير من الأخطاء؛ وحين تحاول فهم ما يجري وتحديد الجهة المسؤولة عن الخطأ؛ فإنك تخرج بنتيجة محيِّرة: الكل مسؤول، والكل بريء أو مدَّعٍ للبراءة! والسبب هو تعمُّد الغموض والتسيب حتى يستخدم الأقوياء قوتهم من دون أيِّ محاسبة، وحتى تمر كل أشكال التقصير والإساءة دون أيِّ مساءلة من أيِّ أحد!

في بعض الأحيان يكون إلى جانب كل قانون و نظام مكتوب قانونٌ ونظام غير مكتوب، وحين نسأل: هل هذا ممنوع؟ أو شيء لا يجيزه القانون؟ يكون الجواب: لا؛ إنه ليس ممنوعاً أي: بحسب القانون المكتوب، ولكن ننصحك بعدم القيام به. لماذا؟ نحن ننصحك! وهذه النصيحة تذكير بالقانون غير المكتوب والذي يطبَّق عند الحاجة. وهكذا هناك خوف وتوتُّر، وظلم وطغيان، ومع الظلم والطغيان تنمو روح الانتقام بالوسائل غير المشروعة، مما يجعل (إدارة التعانف) في غاية المشقة.

٣- نحن نعرف أن الله تعالى نهى عباده عن الذهاب مع الظنون والشكوك التي تشتمل على إساءات وإدانات للآخرين من غير حجة، وذلك لأن اتِّهام الآخرين ببعض النقائص من غير بيِّنة يثير حفائظهم، ويؤدي إلى توتر العلاقات معهم، وفي ذلك قبل هذا ظلم لهم وعدوان عليهم، ولهذا فإن علينا جميعاً التوقِّي من ذلك، وعلينا بالإضافة إليه أن نبتعد عن مواطن الرِّيبة، حتى لا نسهِّل على الآخرين الوقوع في اتِّهامنا بما ليس فينا، ويقدِّم لنا رسول الله ﷺ النموذج العملي في ذلك، حيث ذكر أصحاب الصحاح أنه كان معتكفاً في مسجده، فجاءت زوجه صفية - رضي الله عنها - تزوره، فلما رجعتْ خرج معها فلقيه رجلان من الأنصار؛ فنظرا إلى النبي ﷺ، ثم مضيا، فقال لهما: « تعاليا! إنها صفية بنت حيي »، فقالا: سبحان الله

يا رسول الله! فقال لهما: « إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الـدم، وإني خشيت أن يلقي في أنفسكما شيئاً ».

إدارة التعانف تحتاج إلى استقامة وعلم وفهم وإلى إدراك لـروح العصر وتحدياته ومتطلباته، وعلينا توفير كل ذلك والعمل بـه، وإلا فإن من الممكن أن تخرج الأمور عن حدِّ السيطرة، والله المستعان.

الريادة الإجتماعية

في زمان عاصف وسريع التغير كزماننا تشعر المجتمعات بحاجة ماسَّة إلى من يخبرها عن حقيقة ما يجري، ويرشدها إلى التصرف والموقف المناسبين له، وأعتقد أن الراسخين في العلم والفكر والثقافة هم المرشَّحون للقيام بذلك. إن المعرفة تمنح أصحابها سلطة و درجة من الريادة الاجتماعية، والثمن الذي يجب أن يدفعه من يصبح رائداً هو حمل هموم الناس، ومساعدتهم على حل مشكلاتهم، لكن السلطة التي يملكها المثقف تشكل تحدياً كبيراً له، لأنها تغريه باستغلالها لتحقيق مصالح شخصية على حساب المصلحة العليا للأمة، ولهذا فإننا نجد في كل مجتمعات الأرض حديثاً مريراً عن أزمة المثقفين وعن خيانتهم لأممهم، ولعلي أسلِّط الضوء على ما أعتقد أنه مسؤولية المثقف عبر السطور الآتية:

١ - المثقفون ليسوا مسؤولين عن حماية الثقافة فحسب، بل إن مسؤوليتهم تتسع لتشمل هداية شعوبهم وصون مصالح بلادهم، ومن المؤسف جداً أن الذين يشعرون بهذه المسؤولية في صفوف

المثقفين هم دائماً قلة، حيث نجد الأكثرية منشغلين بالتعلم، والتعليم، والقراءة، والكتابة من غير إدراك لطبيعة الدور العملي الذي يمكن أن تؤديه الثقافة في نهضة الأمة، ولهذا فإن من الواضح أن المثقفين كثيرون لكن الذين يقومون منهم بمهمات المصلحين قليلون جداً، وذلك بسبب غياب الوظيفة النهائية للثقافة عن الوعي، وبسبب الانشغال بكثير من التفاصيل الصغيرة، مما لا يغني ولا يسمن من جوع!. وقد صدق من قال إن كثيراً من المثقفين يغرقون في شبر من ماء!. إنه لا يعادل عظمة المعرفة الواسعة والمتماسكة شيء سوى الوعي بتوظيف تلك المعرفة في إصلاح شؤون الدين والدنيا.

٢- لا يخفى أن كثيراً من الناس مرتبكون في التعامل مع الظروف الجديدة، ومرتبكون في تربية أبنائهم، كما أنهم مرتبكون في ترتيب أولوياتهم وإجراء الموازنات بين الديني والدنيوي والعاجل والآجل والروحي والمادي والشخصي والعام... وهم ينتظرون من مثقفيهم المساعدة في كل هذا.

المثقف يستطيع القيام بكل ذلك، إذا نزل من برجه العاجي، وعرف على نحو جيد عمق معاناة الناس من حوله، فالثقافة هي المنظار الذي نرى منه كل المشكلات، وإن المثقف هو الذي يملك ذلك المنظار. ولا شك أن المثقف يحتاج إلى شيء آخر في هذا الشأن، هو الإخلاص للرسالة التي ندب نفسه لها، حيث إن هناك الكثير

من القوى الفاسدة والغاشمة التي تعتاش على آلام الناس، وتلك القوى تملك ذهب المعز وسيفه، وقد أثبتت على مدار التاريخ أنها قادرة على شراء فريق من المثقفين وقادرة على قهر فريق ثان وتهميش فريق ثالث، وبما أنه يمكن لنا أن نعبر عن الحقيقة بألف أسلوب، فإن في إمكان كثير من الكتّاب والمثقفين المتاجرة بمعاناة الناس بألف طريقة، ومن هنا فإن من جملة مهام المثقفين الأحرار إصلاح ما أفسده بعض زملائهم من تصورات، وما شوهوه من إدراك الجماهير.

٣- تتطلب الريادة الاجتماعية من المثقف الحفاظ على الهوية الوطنية وصقلها ونشر الوعي بها، هذا المطلب يتأكد اليوم بسبب ما نراه من كثافة الوافدات الثقافية والغزو الأخلاقي الناعم، وأعتقد أن الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً هو ما يمنح الخصوصية للمجتمعات الإسلامية، والبديل عنه لن يكون سوى رؤى مختلطة ومشوشة وسوى نزوع إلى(القطرية) وأدبياتها الضيقة وغير الجذابة. هذه المهمة تتطلب من المثقف درجة حسنة من الفهم لروح الشريعة الغراء ومقاصدها ورؤيتها في إصلاح العباد والبلاد.

٤- لا يستطيع المثقف أداء حقوق الريادة من غير تحليل عميق للواقع، والكشف عما فيه من فرص وإمكانات وتحديات.. مع الحرص على إرشاد الناس إلى كيفية التعامل مع كل ذلك. إن النقد

الاجتماعي هو الذي يرتقي بالعالم إلى درجة مفكر، وإن من مهمات المفكرين تمليك الناس رؤية واضحة للمستقبل الذي عليهم أن يعملوا من أجله، وأعتقد أن ذلك يتطلب نوعاً من الثقة بالجماهير وقدرتها على صنع التغيير، ومن الواضح أن ما جرى ويجري في العديد من البلدان العربية يؤكد جدارة المواطن العربي بتلك الثقة.

لن يتحقق أي شيء مما أشرنا إليه ما لم يتخلص المثقف من النزعة العدمية ومن التشاؤم الذي صبغ طروحات كثير من المثقفين حتى قال أحدهم: إن المثقف هو الكائن الوحيد الذي وُلد باكياً، ويظل مدى حياته شاكياً! الثقافة بكلمة واحدة تحتاج إلى من يعيش من أجلها لا إلى من يتعيش عليها؛ وأشعر ببداية تحسن في هذا الشأن.

دائماً هناك فرصة لعمل شيء أفضل، وعلينا اكتشاف تلك الفرصة ونشر الوعي بها.

العضلة الأخلاقية

تقوم العولمة اليوم بإعادة تركيب كثير من العلاقات الاجتماعية، ومن خلال إعادة التركيب هذه يتم تهميش كثير من السلطات العريقة والقوية؛ إنها تهمّش سلطة الدولة والمدرسة والمجتمع والأسرة لصالح توسيع نفوذ أصحاب المال، كما أن تعقيد الأوضاع الحضارية وتقدّم التقنية يتيحان مجالات واسعة جداً للغش والتزوير والهروب من المسؤولية، وتجاه هذه الوضعية العالمية البائسة لا يكون أمام المربين سبيل للمقاومة وتوجيه السلوك أفضل من العمل على تنمية الوازع الداخلي (الضمير) لدى الصغار، والذي أحببنا أن نسميه هنا (العضلة الأخلاقية).

إن التدين الحق يقوم في جوهره على التزام شخصي عميق تجاه تعاليم الشريعة الغراء، وهذا الالتزام يكون قوياً على مقدار قوة الوازع الذي لدى الواحد منا، كما أنه في الوقت نفسه يغذيه ويقويه، وأنا أشعر في بعض الأحيان أن عبادة(الصيام) شُرعت لتدعيم الرقابة الذاتية ومساندة الإخلاص الذي يحمله كل مسلم ملتزم في صدره.

السؤال الذي يطرح نفسه باستمرار هو: كيف ننمي الوازع الداخلي لدى الأطفال؟ وما السلوكات والمواقف التربوية المطلوبة لذلك؟

لعلي أحاول الإجابة عليه عبر المفردات التالية:

١- إن بناء الضمير لدى الأطفال، لا يتم من خلال تلقينهم أسماء الفضائل التي عليهم التحلّي بها، ولا من خلال تعليمهم الأشياء التي ينبغي أن يشعروا بالندم إذا فعلوها...إن بناء الضمير أو الوازع الداخلي يتم من خلال العيش في وسط يتصرف الناس فيه بتوجيهٍ من ضمائرهم، وإن أهم جميع الأوساط والبيئات هو الوسط الأسري.

إن الطفل لا يتفاعل مع التوجيهات والنصائح، وإنما يتفاعل مع ما يراه في أسرته من مشاعر واتجاهات وسلوكات ومواقف، ولهذا فإن الأب والأم هما من يلقي الدرس الأخلاقي الأول على الأطفال، وعلى مقدار صلاحهما واستيعابهما لحجم المسؤولية التربوية الملقاة عليهما يكون ازدهار الوازع الداخلي لدى أبنائهما، إن الأم التي تكتب اعتذاراً للمدرسة بأن ابنتها لم تذهب إليها بسبب مرضها وهي وابنتها تعلمان أن عدم الذهاب كان بسبب النوم أو عدم الاستعداد للامتحان..إن هذه الأم تُضعف الوازع الداخلي لدى ابنتها، وإن الأب الذي يحل الواجبات المدرسية لابنه، ويقول له: قل لهم: إني أنا الذي حللتها؛ إن هذا الأب لا يقدم النموذج المطلوب في الصدق والأمانة.

٢- لا ينمو الوازع الداخلي لدى الصغار والكبار أيضاً إلا في أجواء الحرية؛ حيث يكون الطفل قادراً على فعل الشيء وتركه، إن الآباء الذين يتابعون أبناءهم في كل صغيرة وكبيرة، ويُشعرونهم أن كل أوضاعهم تحت المجهر؛ يؤسسون في شخصيات أبنائهم للنفاق والمكر، ويبذرون في نفوسهم بذور الكراهية للحياة الأسرية!

المطلوب دائماً توازن دقيق يسمح بشيء من المتابعة وشيء من الثقة وشيء من التجاهل وغض الطرف.

٣- من المهم أن نركّز في تربيتنا على بعض الفضائل الخلقية التي تساعد على تنمية الوازع الداخلي والرقابة الذاتية، وتلك الفضائل في الحقيقة كثيرة، نذكر منها: الخوف من الله تعالى، الاستقامة، النزاهة، التسامي، الصدق، الأمانة، الشعور بالمسؤولية، الإيثار، الكرامة الشخصية، الرحمة، الشجاعة. إن من المهم أن ننبه إلى ضرورة تشرّب سلوك الطفل لهذه الصفات من خلال المواقف والعلاقات، وليس من خلال الوعظ المباشر.

٤- الحوار والتواصل وطرح الأسئلة أساليب مهمة في تنمية الوازع الداخلي لدى الأطفال، وإن كثيراً من أخطاء الأطفال يقع بسبب عدم تحدث أهلهم إليهم وعدم مفاتحتهم في أخطائهم بطريقة مناسبة، هذا أب جيد يتحدث مع ابنه عن مسائل الضمير وعن الأسباب والملابسات التي تجعل الطفل يقوم بأعمال سيئة، هذا هو

يسأل ابنه المراهق: ما الضمير في رأيك؟ وكيف يكون ضمير الإنسان حياً؟ وكيف تعرف أن ضميرك حي؟ كيف تعرف أن فلاناً شخص طيب؟ ولماذا يقدِّر الناس الاستقامة؟ لماذا يقع المراهقون في الأخطاء؟ وإذا كنت تجلس في الامتحان إلى جانب صديق يغش، هل تغش؟ أو ماذا تفعل؟ كيف يكون حال اليقين بالله لدى فتى يحسب حساب اطلاع الناس على عيوبه أكثر من اطلاع خالقه عليه؟ إلى أي حد ترى في الظروف الصعبة مسوِّغاً للوقوع في الخطأ؟ إن المقصود من طرح هذه الأسئلة وأشباهها إيقاظ الوعي الذاتي لدى الأبناء وتحسين مستوى المسؤولية الشخصية تجاه السلوكات المختلفة.

٥- إذا أردنا للطفل أن يندفع نحو الفضائل ويُحجم عن الرذائل بمحض إرادته وبشيء من داخله، فإن علينا أن ننمي فيه شخصية الحرِّ الكريم، وهذه الشخصية لا تنمو إلا من خلال التعامل بتقدير واحترام، وهذا يتطلب استخدام لغة متفائلة ومشجعة ومتسامحة.

٦- وقد قالوا قديماً: إن العبد لا يكرّ ولا يفرّ، أما الحرّ الكريم فإنه يفعل الخير، ويعشق الفضيلة، ويسمو بنفسه عن الرذائل.

بين المتابعة والثقة، وبين الحزم والتدليل، وبين المكافأة والعقاب نقطة توازن علينا أن نبحث عنها باستمرار حتى نستطيع التحدث عن تربية ناجحة. ولله الأمر من قبل، ومن بعد؛ **وصلى الله على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.**

الفهرس

العنوان	الصفحة
المقدمة	٥
مخاض مجتمع	٧
تناقض السلوكيات	١١
القيم الضامنة	١٥
مقاومة الجفاء (١)	١٩
مقاومة الجفاء (٢)	٢٣
الإجماع الثقافي	٢٧
التجديد الأخلاقي (١)	٣١
التجديد الأخلاقي (٢)	٣٧
أمير الركب	٤١
صورتان متقابلتان	٤٥
مجتمع يعمل	٥١
بناء المحيط الذهبي (١)	٥٥
بناء المحيط الذهبي (٢)	٥٩
إدارة التعانف (١)	٦٣
إدارة التعانف (٢)	٦٧
إدارة التعانف (٣)	٧١
إدارة التعانف (٤)	٧٥

إدارة التعانف (٥)	٧٩
إدارة التعانف (٦)	٨٣
إدارة التعانف (٧)	٨٧
الريادة الاجتماعية	٩٣
العضلة الأخلاقية	٩٧
فهرس المحتويات	١٠١